أثر صراع الهويات على الاستقرار: السياسي/الاجتماعي
حالة السودان

The impact of conflict of identities on stability: political/social
Sudan case

البروفيسور/ عبده مختار موسى
علوم سياسية: جامعة أم درمان الاسلامية – السودان

Prof. Abduh Mukhtar Mussa
Political science: Umdurman Islamic University – Sudan

أثر صراع الهويات على الاستقرار السياسي/الاجتماعي: حالــة الســودان

عبده مختار موسى

تناقش هذه الدراسة مسألة الهوية من منظور أنثروبولوجي وسوسيو سياسي، وتنطلق من فرضية أن صراع الهويات يؤدي إلى عدم الاستقرار السياسي والاجتماعي ،وقد يؤدي إلى حرب أهلية وانفصال كما في الحالة السودانية التي تقدم تفسيراً إمبيريقياً لهذه الفرضية. وترى الورقة أن جوهر أزمة الهوية يكمن في فشل النخب في حسن إدارة التنوع من خلال إقامة دولة محايدة في تعاملها مع كل مكونات المجتمع الإثنية والقبلية والثقافية من خلال بوتقة انصهار. وترى الدراسة أن النخبة السودانية فشلت في إدارة التنوع وتبرهن على ذلك من خلال دراسة مقارنة بين السودان وعدة دول أخرى أكثر تنوعا من السودان – مثل الولايات المتحدة الأمريكية والهند ونيجيريا – التي حققت درجات متفاوتة من الاستقرار من خلال نظام ديمقراطي حقق دولة العدالة والمواطنة والقانون. وتتناول الدراسة أهم مرتكزات الهوية ونظرية بوتقة الانصهار وأسباب أزمة الهوية في السودان وعلاقتها بعدم الاستقرار والحروب في السودان التي أدت إلى فصل جنوبه واضطرابات في مناطق أخرى. وترى أن السودان يشكل صورة مصغرة لأفريقيا في التنوع وفي طبيعة المشكلات وهو يقدم نموذجاً فريدا لمسألة التنوع وصراع الهويات وتأثيرها على الاستقرار السياسي والاجتماعي.

The Impact of Conflict of Identities on the socio-political Stability: the Case of Sudan

Professor Abdu Mukhtar

This paper deals with the issue of “conflict of identities” from an anthropological and socio-political perspective. It discusses a basic hypothesis that ‘conflict of identities leads to a political and social instability and might end cause a civil war or even a fragmentation of a country such as the secession of South Sudan which provides an empirical evidence for this hypothesis. The paper maintains that the essence of the crisis of identity is an outcome of the failure of the political elites to manage the diversity properly and lack of a ‘neutral’ state to deal fairly with all components regardless to their origin, color or religion. The paper supports this explanation with a comparative perspective that includes – the United States of America, India, and Nigeria which have all achieved a relative degree of stability through proper democracy that sustains the state of law,

citizenship and justice. The study also examines the pillars of identity, touches on the 'melting pot' theory, as well as the root causes of the crisis of identity in Sudan and how it has been responsible for instability and wars in Sudan that had eventually led to the secession of the South. It believes that Sudan provides a unique example for a highly diversified country which is known as a 'microcosm of Africa' whose problems represents the problems of Africa.

أثر صراع الهويات على الاستقرار السياسي الاجتماعي: حالة السودان

بروفيسر/ عبده مختار موسى

علوم سياسية :جامعة ام درمان الإسلامية – السودان

com.gmail@drmukhtar٦٠

مقدمة:

ارتبطت عملية تشكيل الهوية الوطنية تاريخيا بنشأة الدولة، أذ يرجّح البعض الفكرة القائلة بأن الدولة هي التي أنشأت الأمة والهوية القومية إذ أن نشأة الدولة- الأمة (nation-state) أو الدولة القومية في سيرورتها التاريخية نتج أصلاً عن «إرادة واعية وتخطيط هادف من لدن المركز في تعامله مع أطراف الدولة، بحيث أنه ساهم في بلورة الوعي القومي والانتماء المشترك... وكانت غاية المركز الرئيسية هي الإفلات من قبضة الكنيسة – ذات التوجّه العالمي .. في مواجهة مشروع الدولة المدنية ذات التوجّه القومي.»(١) أي نشأت الدولة القومية الحديثة في سياق صراع بين هويتين: هوية دينية عالمية وهوية وطنية قُطرية – بين السلطتين الدينية والسياسية في أوروبا. وقد شهد العالم في خلال القرنين التاسع عشر والعشرين عملية إعادة تنظيم شامل للمجال السياسي وذلك «بالانتقال من كتلة مختلطة ومضطربة من الامبراطوريات والممالك والدول – المدن والحاميات والمستعمرات – والدخول في نظام الدولة الأمة، بحيث شرعت جميعها في انتهاج سياسات بناء الأمة، مستهدفة بذلك نشر هوية قومية مشتركة.»(٢)

منذ انتهاء الحروب الكبرى في العالم – حرب الثلاثين عاما في أوروبا،

(١) حسام الدين علي مجيد، إشكالية التعددية الثقافية في الفكر السياسي المعاصر: جدلية الاندماج والتنوع»، المستقبل العربي، العدد (٣٧٨)، آب/أغسطس، ٢٠١٠ ، (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية)، ص ٢٣.

(٢) المرجع نفسه.

الحربين العالميتين وحروب الاستعمار/الاستقلال – قلّت الحروب بين الدول (inter–state wars) وبدأت تسود العالم أشكال جديدة من الحروب وهي داخل الدولة (intra–state wars)؛ وهي التي تتميز بأن أطرافها – الفاعلون – هم من غير الدول (non–state actors). السمة المشتركة لهذا النوع من الحروب هي أنها في أغلبها حروب إثنية (عرقية) وبعضها يقوم على «صراع هويات»، ويقدم السودان خير مثال لهذا النوع الأخير من الحروب.

مقولة أن الهوية مفهوم ثقافي وليس بيولوجي وأنها مفهوما ديناميكي وليست استاتيكي (جامد) يتحرك مع حركة التغيير تتجلى بوضوح في الحالة السودانية. والسودان يشبه أمريكا بدرجة كبيرة في هذا التنوع العرقي (الإثني). فبينما شبّه علماء الأنثروبولوجيا الغربيين الولايات المتحدة الأمريكية بأنها صورة مصغرة للعالم a microcosm for the world شبّه علماء الأنثروبولوجيا السودان بأنه صورة مصغرة لأفريقيا a microcosm for Africa؛ فالسودان يضم أكثر من (٥٠٠) قبيلة تشكل حوالي ٥٠ جماعة إثنية، ويتحدث سكانه أكثر من (١٠٠)لغة. كذلك التقت في السودان (بلاد السود) القبائل العربية بالقبائل الزنجية/الأفريقية (غير العربية). فحدث التزاوج intermarriage والتمازج intermingling فنتج هذا الهجين hybrid تمثل في سحنة سودانية لا هي عربية خالصة ولا هي زنجية مطلقة (باستثناء أقليات محدودة حافظت على درجة نسبية من النقاء في الطرفين).

ترتبط مسألة – أو أزمة – الهوية في السودان بعملية تشكيل الدولة السودانية، تاريخيا وأنثروبولوجياً، وبأزمة القيادة والنخب وضعف الوعي والثقافة. فحينما تضعف عوامل الحداثة تتمدد الهويات الصغرى (micro–identities) أو الهويات الفرعية (sub–identities) – أي الهويات دون الوطنية (sub–national). وفي الحالة السودانية أسهمت عوامل عدة – ضعف الثقافة وغياب الرؤية الحداثوية، مقروناً مع فشل الطبقة السياسية، مقروءة مع عوامل أخرى – في انتاج هوية مأزومة ،أذ ما زال الجدل يدور بين النُّخَب السودانية حول توصيف السودان: هل هو دولة عربية؟ هل هو دولة «أفريقية»؟ هل هو عربية أفريقية؟ أم هل هو عربية/أفريقية / إسلامية؟ أم هو «السودان» كهوية متميزة «سودانوية» – يضم كل تلك التوصيفات؟ بين هذا وذاك تعيش الهوية السودانية في حالة سيولة تتجاذبها هويات صغرى أو فرعية (دون وطنية). كذلك ترتبط أزمة الهوية في السودان بغياب الديمقراطية وما يتصل به من عدم شرعية السلطة الحاكمة (معظم سنواته تحت حكم عسكري) وذلك يشكل أحد معوقات بناء الهوية الوطنية من حيث غياب المشاركة الحقيقية في السلطة – عدم المشاركة السياسية والثقافية والاقتصادية – وهي عوامل/تفاعلات تغذي عملية التجانس، وبالتالي الاندماج

وبناء الهوية الوطنية. امبيريقياً يقدم السودان أفضل نموذج لتعقيدات الهوية وأزمتها وصراع الهويات.

من الصعب تحليل أو دراسة إشكالية الهوية في السودان دون الوضع في الاعتبار خصوصية الجغرافيا والتاريخ، مقرونة بتدفق الهجرات من كل الجهات عبر عدة قرون فتشكلت هذه الفسيفساء السودانية المعقدة – مقروءة مع طبيعة العقلية السياسية وقصور التفكير وخطأ في منهج التعامل مع مكونات المجتمع.

هذا من حيث الواقع. أما من حيث الدراسة العلمية فمدخل الأنثروبولوجيا الاجتماعية هو الأنسب للتشريح العلمي الدقيق للحالة السودانية من حيث معرفة كيف تشكلت الدولة السودانية وكيف تبلورت هويات «سودانوية» متعددة. كان الأمل في أن هذا السودان البلد الأفريقي العربي الكبير مساحةً والمتعدد ثقافة وعرقاً والذي تتفاعل فيه الثقافة العربية الإسلامية والانتماء الأفريقي أن يكون النموذج في التعايش السلمي ويجسد أطروحة «الوحدة في تنوع». ففي داخله تتفاعل ديناميكيات الهوية التي كان يمكن توظيفها إيجابيا – كما في الحالة الأمريكية – لبناء بوتقة الانصهار. لكن حدث العكس في الواقع. تحولت ديناميكيات الهوية إلى تناقضات وإلى عوامل تفتيت وإلى مجتمع غير متجانس (heterogeneous) أدى ذلك إلى صراع هويات. والذي بدوره إنتهى إلى حروب وعدم استقرار ودولة مضطربة تم تصنيفها – في أسفل القائمة – ضمن الدول الفاشلة.

أولاً: مفهوم الهوية:

عرَّفها المعجم الفلسفي بأنها: «حقيقة الشئ من حيث تميزه عن غيره.»[٣] وعرَّفها الفارابي بأنها «هوية شعب هي التي ينفرد بها شعب من الشعوب أو أمة من الأمم.»[٤] وهي مجموعة من الأوصاف والسلوكيات التي تميز الشخص عن غيره. لكن هناك من يرى ضرورة التلازم بين جانبين أو بُعدين مهمين في الهوية وهما جانب التصورات وجانب التصرفات – أي الجانب الفكري الإعتقادي الذهني المعنوي؛ والجانب العملي الواقعي.[٥] وكذلك هنالك من يرى أنها «أيّ كيان اجتماعي يكون الفرد أهل ليكون عضواً فيه».[٦]

(٣) مجمع اللغة العربية، المعجم الفلسفي، طبعة الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة، ١٩٢٧، ص ٢٠٨.

(٤) عبد الكريم بكار،»تجديد الوعي»: سلسلة الرحلة إلى الذات،دار القلم،دمشق،ط١، ٢٠٠٠، ص ص ٦٩ – ٧٠.

(٥) صالح القريح، الهوية الإسلامية: حقيقتها ووسائل الحفاظ عليها، (ورقة مقدمة في المؤتمر العلمي السادس «الهوية الإسلامية في عالم متغير»، كلية الشريعة، جامعة جرش، الأردن، ١١/٢٠ – ١٢/٢/ ٢٠٠٤)، ص ٣٠.

(٦) Kanchan Chandra: What are Ethnic Identities and Does It Matter? Annual Review of Political Science. Volume 9, 2006, p.400).

كما أن للفرد هوية فكذلك للمجتمع هوية وللأمة هوية. وهوية المجتمع تنطلق من أفراده، إذ للهوية علاقة أساسية بمعتقدات الفرد ومسلّماته الفكرية وبالتالي تحدد سمات شخصيته،(٧) وأطر سلوكه وتصرفاته. ويمكن عدة إثنيات أن تشكل هوية واحدة يجمعها الدين واللغة مثل الهوية الإسلامية والهوية العربية والهوية الزنجية. فمثلاً توجد إثنيات وأقليات في الوطن العربي تجمعها الهوية العربية مثل الدروز، العلويين، والموارنة. كما أن هناك نماذج من الهويات، مثل الإسلامية-العربية، يمكن أن يكون قوامها ثقافة واحدة مقرونة مع العناصر الأخرى للثقافة مثل الدين والقيم والأخلاق والتي تشكل أهم ركائز الهوية.

لعله من الخطأ النظر للهوية بمرتكزاتها المختلفة بأنها ذات ثبات مطلق، بل هي – مع ثوابتها النسبية – متفاعلة مع حركة التاريخ والحضارة في تطور مستمر في سياق حفاظها على «جيناتها» الجوهرية (إن جاز التعبير) و شخصيتها الثقافية المميزة داخل حركة التاريخ. ذلك لأن «شخصية الأمم تعرف ثباتاً نسبياً ومتغيرات العصور قانونها التحول، تقع الهوية بين شقي رحى: ركائز ثبات وعوامل تغيُّر، لذا فوجودها التاريخي تصوغ مضموناته عمليات تشكيل مستمرة ترفض الجمود عند لحظة تركيبية بعينها بحجة الثبات، كما تأبى الانخلاع من شخصيتها الكلية أو روحها العامة بحجة التغيُّر. إذن الهوية هي عملية تشكيل وئيدة أقرب إلى النحت في صخور الجرانيت حيث التطور بطيئ جدا يفعل فعله بالتراكم والاستمرار...»(٨)

يعترف ويتفق العلماء بأن مفهوم الهوية معقد جداً. فجوهر المفهوم يجد تفسيرات في علم النفس وعلم الاجتماع وعلم النفس الاجتماعي والاجتماع السياسي. فقد ذهب سيجموند فرويد إلى أنه يرتبط بخاصية أصيلة في الفرد تتمثل في غريزة الانتماء. فالإنسان حيوان اجتماعي. وينطوي هذا المفهوم على نزعة الإنسان إلى أن ينسب نفسه إلى كيان ما وأن هذا الانتماء يقوم على العاطفة وبالتالي يمكن أن تقوم الهوية على أساس عاطفي(emotional) . وتنشأ الهوية في اللاوعي، ويكون لها قوة الدافع أو الباعث في سلوك الفرد. ويظهر ذلك من تجلياتها الارتدادية واللاعقلانية (irrational).(٩) لكن يرى آخرون أن هذا التفسير الفرويدي لعمليات تشكيل الهوية، الذي يركز على العاطفة، متناقض لأنه يفرز مشكلة في التحليل العلمي مثل التساؤل حول: متى يحدث الفعل الإيجابي؟ ومتى يحدث رد الفعل السلبي؟ وما الذي يسود في النهاية – الفعل الإيجابي أم السلبي؟

لكن تختلف مكونات الهوية من دولة إلى أخرى وربما من عصر إلى آخر.

(٧) إسلام أون لاين، الشبكة الإسلامية، صراع الهويات وخصائص الهوية الإسلامية:www.Islamweb.

(٨) صلاح سالم، التعددية الثقافية وحوار الحضارات والحوار العابر للثقافات، عالم الفكر، العدد ٣ المجلد ٤٤، يناير – مارس ٢٠١٦ (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب)، ص ١٠.

(٩) David L. Sills, (ed.) *Encyclopedia Britannica* (London: McMillan Company, 1972. Vol. 7. p. 58.

فالهوية السياسية في دول الغرب مثلاً تختلف أيضاً من دولة إلى أخرى. ففي بعضها يشكل الانتماء لحزب سياسي عصب السلوك السياسي والموقف الانتخابي. فالأحزاب النرويجية تحصل على أنصار ومؤيدين من جماعة دينية ومهنية وطبقات معينة. وهذه الهويات والانتماءات هي التي تعزز الهوية السياسية بالمقارنة مع الولايات المتحدة حيث يكون الانتماء للحزب نفسه يشكل قاعدة أساسية للإختيار – مرجعية لاختيار مستقل نسبياً عن تأثير الانتماء للجماعات أو المكونات المختلفة.[١٠] بمعنى أن الفرد يصوت للحزب الديمقراطي بغض النظر عن انتمائه لجماعة السود أو الأنجلو–ساكسون أو اليهود مثلاً.

ثانياً: مسألة التنـوع:

ترتبط درجة تماسك الهوية بدرجة التنوع وقدرة النخب على حسن إدارة هذا التنوع. الدول المنسجمة (عرقياً وثقافياً) في العالم قليلة العدد، ١٢ دولة، أو حوالي (٩٪) مقارنة بالدول ذات التنوع (٩١٪). لكن في الفئة الأخيرة استطاعت كثير من الدول أن تحقق نظرية «بوتقة الانصهار» (melting–pot) أو كما أصبحت تُوصف حديثا بـ «طبق السَّلَطَة». في الواقع – كما يتفق الكثيرون – أن هذا التنوع يمكن أن يشكل إثراءً للدولة ثقافيا وحضاريا ،ومصدرا من مصادر القوة للدولة إذا ما أُحسِن توظيفه. وعلى العكس عندما تُساء إدارته ،فقد يُضعف الدولة وربما يؤدي إلى تفككها مثل ما حدث في يوغسلافيا السابقة والصومال (التي ما زالت تبحث في كيفية بناء الدولة) وكذلك السودان حيث انفصل منه الجنوب في عام ٢٠١١.

تقدم الولايات المتحدة الأمريكية أفضل نموذج لنظرية «بوتقة الانصهار» من حيث نجاح نخبتها – منذ الآباء المؤسسون – في حسن إدارة التنوع حيث تشكلت من خليط من شعوب مهاجرة من دول عدة ؛ مقابل السودان الذي يقدم أفضل نموذج لفشل النخبة السودانية في حسن إدارة التنوع – أو «إفشال» نخبتها لتلك النظرية. فقد تشكلت الولايات المتحدة أيضاً من جماعات هاجرت إليها من مختلف أنحاء العالم. غير أن الآباء المؤسسين تعاهدوا منذ البداية على إقامة دولة الحرية والديمقراطية والعدالة والمساواة – أي دولة المواطنة والقانون. وتم إقرار ذلك في دستورهم منذ عام ١٧٧٩. وظل هذا الدستور يخضع لتعديلات كثيرة تواكب التطور وتستوعب المتغيرات – وما فرضته الحروب الداخلية – حفاظا على تماسك الدولة الأمريكية واستقرارها. وكان نتاج ذلك بوتقة انصهار ناجحة ودولة مستقرة تقوم على العدالة والقانون والحكم الرشيد خاصة بعد إقرار الحقوق المدنية للمرأة ثم للسود. وأصبح السود يتمتعون بكافة الحقوق إلى درجة أن رئيس الولايات المتحدة باراك أوباما (٢٠٠٩ – ٢٠١٧) هو من أصل أفريقي/أسود

(١٠) Ibid. p. 57.

مجتمع الولايات المتحدة الأمريكية منفتح، متكيف واستيعابي، لكن نجحت نخبته في تماسكه فيما فشلت فيه نُخب بعض الدول الأخرى (السودان مثلاً). أمريكا تستوعب كل ما يدخل مجتمعها فيمتلئ بالزهو jingoism بالشعور بالانتماء لهذه الأمريكانية Americanism.[١١] هذه تجربة يمكن أن تستفيد النخبة السودانية لتشكيل الهوية السودانوية Sudanism.

هنا يمكن يمكن القول أن النخبة السودانية هي المسؤولة عن عدم الاستقرار (الأزمات والحروب والانفصال) في السودان بسبب عدم تحقيق «الهرمنة» har–monization اللازمة بين مكوناته المتنوعة. لإثبات هذه الفرضية – وصراع الهويات المرتبط بها – يمكن النظر في مقارنة مختصرة بين دولة السودان ودول أخرى متنوعة مثله – وبعضها أكثر تنوعا منه – في كيف أنها استطاعت تحقيق الاستقرار في تلك الدول، بينما فشلت النُخب السودانية.

مقارنة بين درجة التنوع بين السودان، الولايات المتحدة الأمريكية، الهند ونيجيريا:

الدولة	السكان والمساحة	عدد اللغات	الإثنيات (القوميات)	الأديان	عدد الأحزاب	حالة النظام السياسي
الولايات المتحدة الأمريكية	٣٠٠ مليون نسمة/ ٣,٤٧٥,٠٣١كلم مربع	الانجليزية بصورة أساسية (٨٠٪) مع أقليات تتحدث الاسبانية ولغات أخرى	(٦) مجموعات إثنية لكنها كبيرة لأنها تمثل قوميات لشعوب مختلفة في العالم	(١٥) أبرزها المسحية، والإسلام، واليهودية والبوذية والهندوسية وجماعات لا دينية	(٢) الحزب الجمهوري والحزب الديمقراطي	مستقر
الهند	١,١ مليار نسمة/ ١,٣ مليون ميل مربع	٧٨٠	٣٠٠٠ طائفة castes)) و (٥٤) مجموعة إثنية كبيرة	٧ أديان	٧ أحزاب	مستقر
نيجيريا	١٧٥ مليون/ ٩٢٣,٧٦٨ كلم مربع	٥٠٠	٢٥٠ مجموعة عرقية	الإسلام (٥٠٪)، المسيحية (٤٠٪)، أديان أخرى (١٠٪)	حوالي ٣٠ حزب سياسي	مستقر (خاصة منذ ١٩٩٩)
السودان	1882000 كلم مربع/ السكان ٣٢ مليون نسمة		أقل من (٥٠) مجموعة إثنية.*	الإسلام (أكثر من ٩٧٪ بعد إنفصال الجنوب	أكثر من (١٠٠) حزب سياسي (المسجل منها رسمياً ٨٣)	غير مستقر/ مضطرب

لا توجد إحصائية دقيقة بعد انفصال الجنوب، لكن تقريبا انخفض عدد القبائل من ٥٧٢ إلى أكثر من ٤٠٠ قبيلة، وبالتالي انخفض عدد المجموعات القبلية لأقل من ٥٦ التي كانت قبل الانفصال.

بمقارنة بسيطة بين السودان والولايات المتحدة الأمريكية نلاحظ أن أمريكا أكثر تنوعا من السودان في معظم مكونات الهوية – دينيا وثقافيا وإثنيا. مع ملاحظة أن الرقم الخاص بعدد المجموعات الإثنية في أمريكا (٦) هذا لا يعكس

حقيقة التنوع لأن هذا الرقم يمكن وصفه بأنه يشير إلى «قوميات» عالمية أكثر من كونه يشير إلى مجموعات عرقية محدودة تضم عدد من القبائل كما هو الحال بالنسبة للمعيار المستخدم في حالة السودان ونيجيريا. فالمجموعات الإثنية الأمريكية تضم في داخلها شعوباً من دول مختلفة وتحمل كل منها خلفيات ثقافية وخصائص أنثروبولوجيا مختلفة مثل الأسبان والألمان والوافدين من الدول الاسكندنافية والآسيوية والأفريقية وأمريكا اللاتينية وغيرها. وكل مجموعة من هذه المجموعات تنطوي على تنوع في اللغات والثقافة والإثنية. وبالتالي تكون هذه المجموعات الأمريكية الست في الواقع أكثر تنوعا من المجموعات الإثنية في دولة كالسودان والذي تربط شعبه – الذي يزيد عنه شعب أمريكا بعشرة أضعاف – روابط أساسية في مكونات الهوية خاصة الدين (الإسلامي) واللغة (العربية). وتبدو في المفارقة الأكبر في هذه المقارنة في الاختلاف الكبير في عدد الأحزاب (حزبان في أمريكا مقابل أكثر من ١٠٠ حزب في السودان لـ ٣٢ مليون نسمة وبه نسبة عالية من الأمية ومستوى ضعيف في الثقافة السياسية).[١٢]

الملاحظ أن النخبة السياسية الأمريكية قد نجحت في إرساء قواعد راسخة لحكم دولة القانون والحرية والعدالة، وقد تم تضمين هذه المبادئ في دستور منذ بواكير تكوين الدولة الأمريكية – لم يتم إلغاؤه بل خضع لبضع وعشرين تعديلاً ليواكب المتغيرات والتطورات المختلفة. وتعزز ذلك باحترام قواعد اللعبة السياسية المستندة إلى هذا الدستور. وبذلك استطاعت هذه النخبة أن تنجح في تحويل أمريكا لـ «بوتقة انصهار» (melting pot) أنتجت هوية جديدة «الأميريكانية» ودولة متماسكة ونظام سياسي مستقر.

بالنسبة لحالة المقارنة الثانية مع السودان، نيجيريا، فالملاحظ أن نيجيريا هي أكثر عددا من حيث السكان مقارنة بالسودان (ستة أضعاف سكان السودان) وأكثر تنوعا من ناحية المجموعات الإثنية (٢٥٠) أي أكثر من خمسة أضعاف المجموعات العرقية في السودان. وكذلك في عدد اللغات ،أذ توجّد اللغة العربية اللسان السوداني (مع وجود لهجات/لغات محلية محدودة لبعض الأقليات) بينما يسود في نيجيريا عدد كبير من اللغات لإثنيات كبيرة (مثل الهوسا–فولاني، واليوروبا والإيبو) ولا توحدها إلا لغة الاستعمار (اللغة الانجليزية). إضافة إلى وجود دين واحد لأغلبية سكان السودان خاصة بعد انفصال الجنوب (٩٧٪) مقابل وجود الدين الإسلامي والمسيحية (٥٠٪ و ٤٠٪ على التوالي) في نيجيريا مما يتيح المجال لإستقطاب ديني/سياسية حاد وبالتالي فتنة وصراعات وعنف. ومع ذلك استقرت نيجيريا بفعل نجاح نخبتها في إ رساء نظام ديمقراطي توافقي

(١٢) عبده ، مختار موسى، «التعددية في السودان: إدارة التنوع ومطلوبات الاندماج الوطني - مقارنة مع أمريكا، الهند ونيجيريا» فصل في كتاب المسبار 108 «المجتمعات التعددية: إشكالية الاندماج وسياسات الدولة، دبي: مركز المسبار للدراسات، ديسمبر 2015)، ص ص ١٣٩ – ١٦٧.

وفيدرالي كامل مع احترام قواعد اللعبة الديمقراطية، بينما ما زال السودان يعيش في أزمات وحروب وتمزق واضطرابات.(١٣)

أما المفارقة الأكبر هي عند مقارنة السودان مع دولة الهند والتي لا يمكن مقارنتها مع السودان من ناحية التنوع والتعدد – من جميع الجوانب. كما هو موضح في الجدول فإن الهند بها أكثر من مليار نسمة وأكثر من ٣٠٠٠ طائفة وعشرات الأديان و(٧٨٠) لغة ومئات الإثنيات والثقافات ومع ذلك استقرت شبه القارة الهندية بفضل حكمة ووعي نخبتها السياسية واحترامها لقواعد الديمقراطية ودولة القانون والمواطنة والعدالة.(١٤)

إذن من واقع هذه المقارنة المختصرة يتضح أن هذه النماذج (أمريكا ونيجيريا والهند) أكثر تنوعاً من السودان في جميع عناصر الهوية ومع ذلك فشلت النخبة السودانية في إدارة هذا التنوع. ومن استقراء تلك التجارب يتضح أن الآباء المؤسسون في أمريكا والهند، ووعي النخبة السياسية في نيجيريا واحترامها لقواعد اللعبة الديمقراطية (خاصة بعد ١٩٩٩) هي من أهم الأسباب التي جعلت تلك الدول مستقرة بينما فشلت في ذلك دولة كالسودان – أقل عددا في السكان، وأقل تنوعا، مع توافر عوامل قوية للانسجام (الدين واللغة).

ثالثاً: خلفيات وجذور تشكيل الهوية السودانية:

تشير العديد من الدراسات الحديثة إلى أن قارة أفريقيا هي مهد الإنسان الأول، ويُشير علم الجينات أيضا إلى أن الموروثات الأفريقية توكد أنها مشتركة بين كل الأعراق الإنسانية. في آخر عقد الثمانينات من القرن العشرين جاء غلاف مجلة «نيوزويك» الأمريكية يحمل رسماً لآدم وحواء يكلل وجهيهما سواد الإنسان الأفريقي... وفي منطقة عفر في أثيوبيا عثر العالم دونالد جوهانسون على بقايا بشرية أطلقوا عليها اسم (لوسي)، يعتقد أنها الأقدم في العالم وأنها تعود لنحو ٤ ملايين سنة.(١٥)

تشير مُعظم المراجع التاريخية إلى أن بداية التدفقات العربية الكبيرة على السودان وقعت بعد تولي أحمد بن طولون ولاية مصر كأول والٍ غير عربي على مصر في زمن الخليفة العباسي المعتصم. وقد استبدل بي طولون القوات العربية التي ظلت في رباط بمصر منذ أيام الخلفية الثاني عمر بن الخطاب بقوات تركية وقطع أعطيت أولئك العرب فاستأذنوا في التوجه إلى السودان والشمال الأفريقي.

(١٣) المرجع نفسه.

(١٤) المرجع نفسه.

(١٥) الخضر هارون، ماضي وراهن العلاقة بين الدين والدولة في السودان»، صحيفة السوداني، الخرطوم: ٢٠١٧/٣/٢٨). ورقة قدمها في منتدى الدين والدولة في نيروبي (كينيا)، مارس ٢٠١٧

ثم كثرت تلك التدفقات في خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر حتى أدت إلى تغيير التركيبة الديمغرافية في السودان مما أدى إلى سقوط آخر الممالك المسيحية (مملكة علوة) وعاصمتها سوبا قُرب الخرطوم. وقامت السلطنة الزرقاء بتحالف بين قبيلة العبدلّاب التي أسست مُلكاً يمتد من أربجي – بالقرب من النيل الأزرق، جنوب الخرطوم – حتى الشلال الثالث على نهر النيل شمال الخرطوم؛ بينما أقام الفونج مُلكا في المنطقة الواقعة جنوب الخرطوم حتى فازوغلي على النيل الأزرق وشرقا حتى البحر الأحمر ضمّت فيما بعد أجزاءً أخرى في غرب وجنوب غرب السودان.(١٦)

لعبت هذه الدولة الفتية التي كانت عاصمتها (سنار) دوراً كبيرا في توطين الإسلام والثقافة الإسلامية في السودان حيث شجعت العلماء والمتصوفة من الجحاز والمغرب واليمن عل القدوم إلى السودان وتعليم الناس ومنحتهم الأراضي وأعفتهم من الضرائب فجاؤا من كل بقاع العالم الإسلامي في وقت ضعفت فيه الصوفية خارج السودان واختلطت بالأساطير والخرافات في رأي (قبريال ووربيرغ). وقد وصف جي اسبنسر ترمينقهام سودنة الإسلام أو أفرقة الإسلام القادم إلى السودان من موطنه الأصلي بالقول: «إنهم قبلوا الإسلام بجماع قلوبهم لكن وفقاً لطريقتهم الفريدة فيالتمثل حيث أخضعوه لعقليتهم وطريقتهم الخاصة مجافاة لقوالبه الثيولوجية الجامدة؛ فتغنوا فيه ورقصوا وبكوا وأقحموا فيه عاداتهم وأعرافهم وأذابوا فيه بدرجة كبيرة عقائدهم الوثنية (أي التي سبقت مجيئه) لكن تمسكوا بحيويته وبالوحدة الكامنة فيه تحت وحدانية الرب».(١٧)

The Sudanese received Islam whole-heartedly, but through" their unique capacity of assimilation, molded to their own par-ticular mentality p escaping the formulae of theologians, they sang in it, danced in it, wept in it, brought their own customs, their own festivals into it, and paganized it a great deal but always kept the vivid reality of its inherent unity under the rule of one God." (١٨)

إن عملية التمثُّل والاستيعاب للإسلام في التراث والثقافة الأفريقية ليست قاصرة على السودان بل تمت في سياق ظاهرة شاملة للقارة الأفريقية تناولها كثير من الباحثين، وهي ظاهرة أدت إلى صراع بين المتصوفة والإسلاميين في أفريقيا.

(١٦) المصدر نفسه.

(١٧) Trimingham, The Christian Approach to Islam in the Sudan, Oxford University Press. 1948, p. 25.

(١٨) Tremingham, Islam in the Sudan, p. X

,The Course of Islam in Africa, Edinburgh University Press an up-to-date comprehensive survey traces the devel-)١٩٩٤ opment of Islam in Africa from the seventh century to the present day. Stretching from North Africa and Egypt to Ethiopia, East Africa, and the Horn, it pays particular attention to the development of Islamic mysticism throughout the continent, with a detailed account of the Sufi cosmology…concluding with the a ground-breaking study of the rise of Islamic fundamentalism and its clash with African democracy.[١٩]

يُلاحظ أن تغلغل واستيعاب المسلمين العرب في السودان نتج عنه – إضافة إلى أشياء أخرى – تغيُّرات ثقافية كبيرة خاصة في اللغة والدين. لذلك يصح الافتراض بأن السودان إذا لم يكن به هذا التفوق العربي (على اللغات والثقافات الأخرى) فإن هذه الدولة ربما صارت دولة ذات تعدد لغوي (multi-lin-gual) وربما توحدت فقط بلغة المستعمر (اللغة الإنجليزية) – مثلها مثل أي مستعمرة بريطانية أخرى (نيجيريا، الهند، كينيا، يوغندا ...).

وعلى رغم ظروف الهجرات والحراك الاجتماعي والتفاعل بين إثنيات مختلفة إلا أن ذلك لم يؤد إلى قطيعة ثقافية تؤثر بصورة جذرية في المجرى الرئيس(mainstream) لهوية السودان الشمالي. ويعزي الباحثون عملية التواصل الثقافي (cultural continuity) إلى اللغة العربية كلغة جامعة (lingua franca) والثقافة الإسلامية الرابطة بين الإثنيات، إضافة إلى التفاعل الاجتماعي والديني في إطار التعايش والتسامح المتبادل. وبذلك استطاع التواصل الثقافي أن يحفظ استدامة الهوية المشتركة. هذا التداخل (interplay) بين هذه المجموعات العرقية المتعددة أعطى السودان خصوصية بوصفه بوتقة انصهار (melting pot). لكن بوتقة الانصهار هذه تعني أن النظام الاجتماعي الثقافي السوداني هو «مزيج فريد لمجموعات متعددة الأعراق تشكل بناءه.»[٢٠]

غير أن هذا يعتمد على إلى أي مدى نستطيع تنشيط عوامل الوحدة – مثل اللغة – لتساهم في عملية إيجاد التجانس (أو الهرمنة). مثل هذه العملية لا تتحقق – على نطاق السودان – إلا في المدى البعيد لأنها تحتاج إلى درجة عالية من عملية التمثُّل (assimilation) لاستيعاب الجماعات المختلفة أو/و المهمشة في الثقافة السودانية الكلية. وفي ما يخص الشمال فقد حدث حراك اجتماعي

(١٩) T. S. Trimingham, A History of Islam in West Africa, London, 1962

(٢٠) Al-Fatih Abdul-Salam, Ethnicity, Conflict and National Integration in The Sudan", Khartoum: the Institute of African and Asian Studies, Khartoum University, 1989, p33.

مكثَّف ريفي–حضري قللَّ من هذا التمايز الحاد.[٢١] لكن هذا يصدق أو ينطبق على الشمال فقط. أما في ما يخص الشمال مقابل الجنوب فقد كان هذا التمايز حاداً جداً ويظهر دائماً في السطح كلما تعرضت العلاقات بين جزئي الوطن إلى اختبار حقيقي مثلما وقع من أحداث دامية بين الطرفين في عامي١٩٦٤ و ٢٠٠٥م، واستمر ذلك الوضع إلى أن انفصل الجنوب بالكامل وصار دولة مستقلة منذ يوليو ٢٠١١.

باستقراء التاريخ نجد أن عملية التواصل الثقافي التي ساعدت على تماسك الجماعات السودانية في الماضي قد تعززت أيضاً بعوامل عدة أخرى في إطار السودان الحديث مثل: الإسلام الذي تمثل في المهدية ثم المهدية الجديدة،[٢٢] وبالاستعمار الذي شكل عدواً مشتركاً وحَّد كل الجماعات في السودان. كما أن الإدارة المركزية التي أسستها القوى الاستعمارية قد عززت الوحدة الوطنية. هذا يفسر لماذا اندلعت المشكلات الإثنية بعد الاستقلال. السبب هو أن الجنوب لم يتم استيعابه أو لم يتمثَّل الثقافة الأم أو المركزية(core culture). فقد بقي الجنوب محافظاً على تمايزه في اللغة والعادات والدين وشكل تحدياً لأطروحة «بوتقة الانصهار». ولذلك تنطبق هذه الأطروحة على الشمال فقط. ويعتقد الباحثون أن عملية الانصهار تمت بنجاح في الشمال حيث «ذابت بعض المجموعات أو الثقافات في الثقافة الكلية.»[٢٣] وبما أن هذه الجماعات المستوعَبة في الثقافة الرسمية قد شكلت ثقافاتها الفرعية إضافةً وإثراءً للثقافة الكلية فإن ذلك يشكل دعماً إمبيريقياً لأطروحة بوتقة الانصهار – لكن في الشمال فقط.

إذن في السودان قد أخذ التغلغل العربي بعداً سلطوياً حاملاً قيماً ومعتقدات سادت على حساب الآخر. وتميز الوجود العربي بقوة الدفع التي تتمثل في النسق الحضاري المتكامل من لغة ودين وثقافة في اتساق مكنها من التجانس والقوة لتربط فسيفساء عالية التنوع. هذا التنوع الكثيف في الهويات (multiplicity of identities) تمازج في السودان عبر فترة زمنية طويلة فكان النتاج حالة فريدة من مركب الهويات والإثنيات (ethnic multiplicity) وضعت الدولة السودانية على مفترق الطرق: إما أن يتم نسجه إيجابياً من خلال عملية اندماج اجتماعي في بوتقة انصهار، وإلا فإن هذا التنوع الكبير في العرقيات والهويات والدين سوف يضعف الدولة ويهدد التماسك الوطني.

يمكن القول أن الهوية السودانية هي كل مركب تتفاعل في داخله وتتقاطع عدة هويات: هوية دينية (إسلامية)، وهوية لغوية (عربية/قومية) وهوية زنجية/أفريقية،

(٢١) ibid., p. 37

(٢٢) Ibid. p.39

(٢٣) Ibid. p.39

وهوية إثنية (عرقية)، بل وحتى جهوية/مناطقية – مثل «جنوبي» , و «غرباوي/دارفوري» – بالمعنى الجغرافي/العنصري، ونحو ذلك. وهذا ما جعل السودان يبدو من ناحية هوياتية كأنه في حالة سيولة ولم تستقر هويته على مرتكز واحد/جامع بعد – بمعنى هوية سودانوية كبرى (Pan-Sudanism).

إذن على الرغم من التعقيدات في تعريف الهوية إلا أنه في السودان شكّل الدين الإسلامي واللغة والثقافة العربية قاعدة أساسية للهوية للجماعات المختلفة – لا سيما في شمال السودان (قبل انفصال الجنوب). هذه الهوية العربية/الإسلامية أضعفت الهويات الفرعية الأخرى – مثل الإثنية. غير أن الهوية الإسلامية/العربية لم تقض على الهويات الأخرى بل احتوتها من خلال عملية استيعابية شكلت مصدراً للاستقرار النسبي والتعايش السلمي لمختلف الإثنيات لفترات طويلة. أي أن الدين يمكن أن يشكل حاضناً للهوية عندما يكون هو المرجعية في القيم والأخلاق والسلوك. وكذلك الإثنية يمكن أن تكون منصة للهوية. وهي بالفعل كذلك في كثير من الدول خاصة المتخلفة حيث ما زالت الإثنية تشكل عصب البناء الاجتماعي والانتماء السياسي إلى درجة أن النخب أصبحت تتمترس خلف الإثنية في كسب التأييد الشعبي للوصول للسلطة. وأحياناً تطغى الإثنية حتى على العقيدة الدينية في التأثير على السلوك السياسي.(٢٤)

في الواقع السوداني على الرغم من أن الإثنية والدين يشكلان مكونات حيوية للهوية إلا أنه أحياناً يطغى تأثير الإثنية على الهوية – خاصة الهوية السياسية. وقد طغى تأثيرها على العامل الديني عندما تم تسييس الدين ولم يعد هو يشكل المرجعية أو المظلة الاستيعابية الفاعلة فتحركت ديناميات الهوية من منصة الدين إلى منصة الإثنية. وتقدم أزمة دارفور خير مثال لهذه الأطروحة.

رابعاً: منظور أنثروبولوجي وامبيريقي للحالة السودانية:

إن جذور المشكلة الحقيقية لمسألة الهوية في السودان ترجع في الأساس إلى الخلفيات الأنثروبولوجية التي تشكلت منها الدولة السودانية. إن التنوع في الهوية السودانية هو نتاج لعملية طويلة من التنشئة والتثاقف (socialization and acculturation تطورت عبر تكيُّف تاريخي وسياسي واقتصادي واجتماعي. (٢٥) الملاحظ أن هذا النسيج الاجتماعي–الثقافي للسودان قد تنج عن تعايش سلمي وتسامح ديني بين العرب المسلمين والمجموعات السودانية المحلية. وشكلت

(٢٤) عبده، مختار، مسألة الجنوب ومهددات الوحدة في السودان (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٩)، ص ١٢٦

(٢٥) Abdu Mukhtar Musa, The Impact of the State on the Press: Unpublished Ph.D. dissertation, Department of Political Science, University of Khartoum, Sudan, 2005

هذه العملية الأساس والإطار الاجتماعي للثقافة السودانية والهوية لأنها «مكنت الجماعات المختلفة من الاختلاط والاندماج برغبة فكونت جماعات أكبر (wider grouping).»[٢٦]

كحقيقة تاريخية وأنثروبولوجية إن العرب ليسوا السكان الأصليين في السودان – من زاوية أنثروبولوجية (not the indigenous people)؛ وكذلك اللغة العربية – مع أن الثقافة الإسلامية–العربية اكتسبت السيادة فيما بعد. وهذا يرجع إلى العصر الذي عاشت فيه ثلاث ممالك مسيحية في وادي النيل. تغذى سكان السودان بنفوذ ديني ولغوي واجتماعي سياسي متنوع من النوبيين، شمال أفريقيا والبحر المتوسط وشمال شرق أفريقيا وغرب آسيا. جاء أثر المسيحية القبطية واليهودية من مصر وإثيوبيا ودول البحر المتوسط. جاء التأثير اليوناني الروماني واللغة والثقافة السامية من إثيوبيا الأكسومية، وشبه الجزيرة العربية، تسربت لغات روما واليونان إلى الممالك السودانية المسيحية وتفاعلت مع الثقافات المحلية، انتشرت عبر الزمان ... والمكان ... وأخيراً ساهمت في تشكيل هذا النسيج الإثني المعقد.[٢٧]

هذه التغيرات التي تمت عبر هذا التحول التاريخي الطويل، خاصة في عصر الممالك والسلطنات الإسلامية، أنتجت نوعاً جديداً من السودانيين لهم هويتهم الدينية والإثنية والثقافية. هم الآن «أفارقة مسلمون ... تمثَّلوا الإسلام لكن ليس العروبة. فهم ينتمون ثقافياً (دينياً ولغوياً) للمسلمين المستعربين في الجوار – في الشمال والشرق، وعرقياً ينتمون إلى الجيران الأفارقة غير المستعربين في الجنوب.»

وقبل الهجرة العربية للسودان النيلي كان يسكن هذه المنطقة حاميون في الشمال وقبائل زنجية في الجنوب. أي أن المفاصلة كانت تاريخية وأنثروبولوجية. ودخلت القبائل الرعوية هذه البلاد عبر القرون وتزاوجت بالجماعات السودانية الأصلية أو المحلية(indigenous). هذه الجماعات (القبائل) المختلفة اعتنق معظم أعضائها الإسلام وتمثلت الثقافة العربية وكذلك العادات واللغة العربية. إذن شهدت المنطقة تفاعل إثني بين العرب والحاميين والزنوج. وصاحب ذلك تفاعل

(٢٦) Sayyid Hamid Hurriez, Ethnic Culture and National Identity in the Sudan, in: Sayyid H. Hurriez and El-Fatih Abdel Salam (eds.), Ethnicity, Conflict and National Integration in the Sudan, Sudan Library Series; Institute of African and Asian Studies, University of Khartoum, 1989), p. 77.

(٢٧) Sayyid Hamid Hurriez, Ethnic Culture and National Identity in The Sudan " in: Sayyid Hamid Hurriez and Elfatih Abdel-Salam (eds), Ethnicity, Conflict and National Integration in the Sudan, Sudan Library Series; 16 (Khartoum: Khartoum University Press, Institute of African and Asian Studies, 1989), pp. 80 – 81.

ثقافي بين الإسلام والمسيحية والوثنية.[٢٨]

يرى بعض الباحثين أن عملية التحديث أعاقتها الثورة المهدية – مع افتراض الاستخدام المجازي هنا للتحديث بدلاً عن التغريب – حيث حاولت الثورة المهدية استعادة استمرارية إحياء البعد الإسلامي في تركيبة الهوية الثقافية للدولة. وقد فشل الاستعمار البريطاني في وقف تيار الثقافة العربية–الإسلامية. لكن نجح البريطانيون في منع هذا التيار من التغلغل في الجزء الجنوبي من السودان وذلك بانتهاج سياسة المناطق المقفولة(closed districts).

وهكذا تشكل شطران في السودان: الشمال عربي (أو مستعرب) مسلم، والجنوب زنجي مسيحي؛ حيث عملت الإدارة البريطانية على تشجيع التبشير المسيحي. بل في مرحلة ما من النفوذ الأجنبي تقاسمت الجنوب ثلاث قوى غربية للتبشير المسيحي هي: الإرسالية الأمريكية التي كانت منطقة نفوذها في أعالي النيل، والإرسالية البريطانية في الاستوائية، والإرسالية الإيطالية في إقليم بحر الغزال. وحتى اليوم تتحدث النخبة الجنوبية عن هويات مسيحية(Christian identities) باعتبارها الركيزة الأساسية للهوية الجنوبية مقابل الهوية الإسلامية في الشمال. هذا التمييز ليس جغرافياً؛ فالهوية الجنوبية الإفريقية/المسيحية توجد في الشمال أينما نزح – أو وُجِد – الجنوبي. فهي ذاتية ثقافية لا يغيرها وجود الجنوبي في شمال السودان. والملاحظ أن الجنوبيين قد كسبوا كثيراً من الترويج لهذا البعد كأساس للصراع بين الشمال والجنوب (كما سبقت الإشارة لذلك). وقد تعمق ذلك الفهم عند الجيل الحالي حيث تناقلت أجيالهم تلك الصورة الذهنية القديمة التي تصور الشمالي بأنه مصدر الغزو والاسترقاق. وقد استفادت النخبة الجنوبية من إعلام العولمة حيث بثوا أدبياتهم في الفضائيات وشبكة الانترنيت لاستمالة الرأي العام العالمي واستدرار العطف الدولي. وتكثّف نشاط الجنوبيين في هذا الاتجاه على المستويين الإقليمي والدولي.

إذن يمكن القول إن السودان الذي يشكل جزءاً كبيراً من بلاد السودان يتمتع بدينامية إثنية وتفاعل ثقافي واسع. إن هذا السودان هو نتاج لعملية تمازج بين النوبيين والعرب والبجا والزنوج السود. وهذه الخصائص أهلت السودان ليكون معبراً (corridor) للثقافة الإسلامية العربية لأفريقيا. كذلك أصبح بوتقة انصهار لإثنيات متعددة وثقافات متنوعة من أصول عربية وأفريقية. كذلك يمكن القول

(٢٨) Yusuf Fadle Hassan (ed.), *External Islamic influence and the Progress of Isalmization in the Eastern Sudan Between the Fifteenth and the Nineteenth Centuries.* In: Sudan in Africa (studies presented to the First International Conference Sponsored by the Sudan Research Unit, (later on renamed the Institute of African and Asian Studies, University of Khartoum), 7 – 12 Feb-ruary 1968, p. 75.

إن صناعة الهوية السودانية الحديثة جاء نتاجاً لعملية أسلمة وتعريب انتشرت سلمياً عبر الرُّحَل والصوفية والتجار والعلماء والتزاوج مع السكان المحليين من العناصر الحامية. هذه التوليفة الإسلامية العربية وجدت الاعتراف الواعي من النخبة الشمالية وقد ظهرت في أدبيات المثقفين؛ منها جماعة الغابة والصحراء كرمز لهذا الانصهار بين العرب والأفارقة في البوتقة السودانية. غير أن هذا الاعتراف لم يجد طريقه إلى العقلية الجنوبية، بل لم يخترق الواقع الجنوبي.

امبيريقياً مما يؤكد أن الصراع بين الشمال والجنوب في السودان كان صراع هويات هو أن الجنوب قد انفصل بالفعل في يونيو ٢٠١١ بعد اتفاقية سلام في عام ٢٠٠٥ تم توقيعها بين الحكومة السودانية والطرف الآخر الذي كان يمثل الجنوب (حركة وجيش تحرير السودان SPLM/A بقيادة الراحل العقيد د/جون قرنق) حيث اتفق الطرفان على استفتاء بين خياري الوحدة أو الانفصال. (وقد تنبأ كاتب هذه الدراسة بحتمية انفصال الجنوب عن الشمال في السودان وذلك في كتاب صدر قبل عامين من الاستفتاء عام ٢٠٠٩). وقد انطلق الكاتب من فرضية أساسية هي أن «صراع الهويات يؤدي إلى انفصال الجنوب». وتضمنت الدراسة جانب امبيريقي/استقرائي توصل من خلاله الكاتب إلى أن الجنوب سوف ينفصل – سواءً كان سلميا بالاستفتاء أو بالقوة العسكرية من خلال استمرار التمرد والحرب. وقد جاء في الكتاب أن اتفاقية السلام التي تم توقيعها في نيروبي (كينيا) قد انهت الحرب ولكنها لن تحقق الوحدة أو السلام المستدام.

في الواقع تشكل مسألة جنوب السودان أقوى دليل إمبيريقي empirical evidence على أطروحة صراع الهويات في السودان. فعند ذكر مسألة جنوب السودان – أو علاقات الجنوب بالشمال في السودان – يتبادر للذهن مجتمع سوداني غير منسجم وفي غاية التعقيد والتعدد (pluralistic). وعندما يطال التعدد الجوانب الثقافية والدينية والعرقية يكون في الغالب الناتج هو مجتمع غير متجانس (heterogeneous). مجتمع بهذا التوصيف يحتاج لعملية (استجناس) أو «هرمنة»(homogenization) لتحويل هذه الفسيفساء الثقافية الإثنية إلى تنوع يثري وحدة مستدامة يكون قِوامها بناء اجتماعي متماسك (coherent). هذا هو دور الباحث والمثقف ووسائل الإعلام والنخب أكثر من كونه مسؤولية السياسي.

ربما يصدق القول إن مشكلة الجنوب السودان قد تفاقمت – ضمن عوامل أخرى – بسبب عجز النخبة السودانية عن تحقيق الانسجام بين مكونات المجتمع السوداني. ولأسباب تاريخية وعوامل موضوعية – يشير لها هذا البحث بالتفصيل – ظهرت أزمة ثقة بين الطرفين – على مستوى النخبة السياسية. ثم استعصت المشكلة وتفاقمت الأزمة بسبب نوع المنهج الذي تعاملت معه النخبة السياسية الحاكمة (الشمالية) مع هذه المسألة. هذا المنهج ارتبط بالعقلية التي تعاملت

مع المشكلة منذ بدايات تمظهرها في شكل تمرد في خمسينيات القرن العشرين. فركزت تلك العقلية على الحل العسكري في فترة الفريق إبراهيم عبود (١٩٥٨ – ١٩٦٤). ثم في انتقلت إلى الحل السياسي (فترة حكومة مايو/أيار ١٩٦٩ – ١٩٨٥) وفترة الإنقاذ (منذ ١٩٨٩م) وهو منهج أفضل ولكن ذلك أطال أمد الحرب من هدنة إلى هدنة، ومن مفاوضات إلى أخرى. ولم تتمكن النخبة الشمالية من التوصل إلى اتفاق مع النخبة الجنوبية إلا بعد أن استوعبت أهمية الأبعاد الأخرى في المشكلة: البعد الاقتصادي– الاجتماعي وما يرتبط به من اعتراف بالظلم الاقتصادي والتهميش السياسي. ثم البعد الخاص ببناء الثقة – وهو الأصعب في مرحلة الانتقال ويشكل أحد العوامل الأهم في عملية تشكيل مستقبل السودان. هذا البعد الأخير يرتبط به بعد نفسي تشكل بتراكمات تاريخية وتعزز بسياسات استعمارية الأمر الذي أضفى على المشكلة – أو علاقة الجنوب بالشمال – المزيد من التعقيد والتأزيم.[٢٩]

مجمل هذه التطورات والتراكمات التاريخية والنفسية للمسألة جعلت العقل الجنوبي يستبطن موقفاً مسبقاً تجاه الشمال – هو موقف عقلي ووجداني يصل إلى درجة القناعة الجازمة (dogma) بأن الشمال يقوم على هوية مختلفة جداً عن الجنوب. هذا الموقف أصبح واضحاً على مستوى المقولات وعلى مستوى الممارسات. يقوم الموقف الجنوبي على فكرة استعلاء الشمالي على الجنوبي. وعلى الرغم من أن الانتلجنتسيا الجنوبية تعترف بأن مصدر هذا الاستعلاء هو العروبة والإسلام باعتباريهما يشكلان ثقافة راقية، إلا أنها ترى «أن الوجه الآخر للعُملة هو تحقير الجنوبي» (فرانسيس دينج، صراع الرؤى، ١٩٩٥).

وقد قسمت الدراسات العلمية سكان السودان إلى مجموعات إثنية كل منها تشكل نسبة محددة كما يلي:

المجموعة العرقية	نسبتها إلى إجمالي السكان
العرب	٣٩٪

الجنوبيون	٣٠٪
مجموعة الغرب (الأفارقة)	١٣٪
النوبة (جنوب كردفان)	٦٪
البجا (شرق السودان)	٦٪
النوبيون (أقصى شمال السودان)	٣٪
مجموعات متنوعة أخرى وأجانب	٣٪
	١٠٠٪

*المصدر: عبده، مختار موسى، مسألة الجنوب ومهددات الوحدة في السودان (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربي، ٢٠٠٩)، ١٣٤.(لا تتوافر احصائيات جديدة بعد انفصال الجنوب، لكن يمكن تقدير النسبة – بعد الانفصال – على الأرجح أن تكون ٥٩٪ عرب و ٤١٪ غير عرب).

تمت عملية فصل الجنوب في إطار تقسيم السودان إلى مناطق ثقافية، هي في حقيقتها «إثنية». شملت هذه العملية الإثنولوجية جماعات وسط السودان المستعرب: النوبة (في جبال النوبة)، إثنيات في جنوب النيل الأزرق (الأنقسنا، الفونج)، دارفور، شرق السودان. وبالتالي من المتوقع أن تعاني تلك المجموعات الإثنية من ذات الخطاب العرقي أو الإثنولوجي الذي عان منه إنسان جنوب السودان قبل الانفصال. ذلك لأن النخبة النيلية الحاكمة ظلت تعمل على تكريس هذا الخطاب والذي أحال التنوع والاختلافات المادية والثقافية والإثنوغرافية بين المكونات السودانية إلى علاقات هرمية وتراتبية – وبالتالي السيطرة الثقافية والاجتماعية لمجموعة على الأخرى. استمرار هذا الخطاب هو الذي يستديم صراع الهويات ويهزم أي سيرورة نحو بناء هوية وطنية أو أمة سودانية متماسكة ومستقرة..

خامساً: الهويات الصغرى ومسألة الاندماج الوطني:

بقراءة فاحصة للخريطة الأنثروبولوجية للسودان يمكن ملاحظة أن المشهد السوداني – هوياتياً – تتفاعل وتتقاطع فيه عدة أشكال ومستويات من الهويات (كما سبقت الإشارة). ويمكن لغرض هذه الدراسة النظر في بعض الأمثلة لهذه الهويات الصغرى أو دون الوطنية – مثل القبلية والطائفية والإثنية والطرق الصوفية. والمقصود بعبارة «مسألة الاندماج الهوياتي» في هذا العنوان هو كيفية استصهار هذه الهويات الصغرى في بوتقة هوية وطنية جامعة.

يمكن النظر للهويات القبلية والإثنية والطائفية – في السودان – باعتبارها هويات صغرى أو فرعية (هنا يتم استخدام المفردتين كمترادفتين) فهي كلها تعبر عن هويات دون وطنية، وأن الاختلاف بينها هو اختلاف درجة – من حيث القدرة

على التأثير – سلبا أو إيجابا في عملية بناء، أو إعاقة بناء، الهوية الوطنية – يعتمد ذلك على الطبقة السياسية الحاكمة أو طريقة تعامل النخبة معها – كما أشارت الدراسة لذلك سابقا في مقارنات مختصرة بين بعض الدول الأكثر تنوعاً (الهند، الولايات المتحدة ونيجيريا، مقارنة بالسودان). فالقبلية والإثنية في السودان هي الأعلى درجة في التأثير الهوياتي – أو في التراتبية الهوياتية مقارنة بالطائفية والجهوية والصوفية وغيرها.

١. القبليـــة (Tribalism):

ليس صحيحاً – كما يعتقد البعض – أن القبيلة بقايا أنظمة اجتماعية بائدة فقدت مكانتها أو لا توجد إلا في هامش الدولة، أو هي بقايا أشكال ما قبل الدولة. فقد أثبتت الدراسات الأثرية والإثنوغرافية أن القبيلة دالة على المنزلة التراتبية بين منزلتي 'العصبية' و 'الدولة'. وقد لاحظ بعض الأنثروبولوجيين والمؤرخين في سبعينات القرن العشرين «أن القبائل تمكنت تاريخيا من إقامة كثير من الدول – بحيث يتسند تكوين الدولة إلى الإمكانات القبلية – واقترحوا علاقة عكسية بين قوة الدولة وقوة القبائل (خصوصاً في إيران).»[٣٠] ويتساءل البعض: «هل تقوى الهويات القبلية كلما ضعفت الدولة القومية»؟[٣١] وفي دراسة أشارت مجموعة من المجيبين إلى القبائل في كل من العراق وباكستان ووسط أفريقيا وشرقها والأردن وفلسطين وإيران قائلين: «احترموا القبائل؛ إنها تقوم بما تعجز عنه الدول الضعيفة عن فعله.»[٣٢]

في بعض الدول للقبيلة وزن ودور وتأثير كبير في الدولة والمجتمع. ففي أفغانستان مثلاً تقدم قبيلة (البشتون) خير مثال لذلك إذ يبلغ تعدادها أكثر من (٢٥) مليون شخص، كما ينتشرون في باكستان. وقد حكم البشتون أفغانستان منذ أن أسسها أحمد شاه العبدلي/الدوراني في أواسط القرن الثامن عشر حكماً متواصلاً حتى حدود القرن الحادي والعشرين. وفي غضون ذلك اكتسبت قبائل البشتون سمعة دولية بفضل أنشطتها على الحدود الغربية للهند البريطانية، بما في ذلك

(٣٠) عبده مختار، مسألة الجنوب...، المرجع السابق (أنظر المقدمة). هذا الكتاب صدر قبل عامين من الاستفتاء. لكنه تنبأ بإنفصال الجنوب. فقد رأى الكاتب المسألة أكبر من النظر إليها باعتبارها مسألة موارد وظلم اقتصادي وتهميش سياسي بل تتجاوز كل ذلك إلى تباين ثقافي واختلاف عرقي إلى صراع في الهويات. لذلك وضعها الكاتب في إطار هذا المنظور الشامل خاصة من خلال المدخل السوسيولوجي والمنهج المتكامل حيث اتبع أسلوب التحليل الاستقرائي الذي يستند إلى بعض المحاولات الإمبيريقية. فتحققت فرضيته التي انطلق منها – قبل الاستفتاء – حيث وقع انفصال الجنوب. (عبده مختار موسى، مسألة الجنوب ومهددات الوحدة في السودان، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٩).

(٣١) ريتشارد تابر، القبيلة: مفارقة تاريخية في القرن الحادي والعشرين»، مجلة عمران .... العدد (١٥) شتاء ٢٠١٦، ص ١٣).

(٣٢) المرجع نفسه، ص ص ١٣ – ١٤.

المشاركة في فصول الحروب الأفغانية الثلاث إبان القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين،فضلاً عن مساهمتهم في مختلف الثورات المحلية...[٣٣]

في اليمن يسود اعتقاد بأن القبيلة أقوى من الدولة حيث «تمتعت القبيلة في كثير من حقب التاريخ بنفوذ كبير واستقلالية تامة عن أي سلطة مركزية؛ بل كانت في كثير من الأحيان هي المهيمنة على الدولة والحكم، أو ما يُعرف بـ «دولة القبيلة الغالبة أو القوية؛ وفي أحيان أخرى تكون مشاركة في الحكم.»[٣٤] وفي بعض الدول – مثل ليبيا وتونس – «ظلت القبيلة تعرقل نشأة مكونات المجتمع المدني في هذه المجتمعات وتعيق تطورها وأداءها وذلك مؤشر – منذ ثورات الربيع العربي – إلى عودة القبيلة إلى حقل الفعل السياسي والاجتماعي في المنطقة العربية.»[٣٥]

لعبت القبيلة في ليبيا دور الدولة عبر التاريخ , كان هذا في فترات التاريخ الليبي القديم فكانت القبيلة هي الوطن بالنسبة للمواطن الليبي , بعد الاستقلال بدأ تأسيس المجتمع الحديث وحاولت الدولة أن توفر للمواطن ما كانت توفره القبيله من ضمان أمن وحياة كريمة, كانت المؤسسات الحكومية هي البديل العملي للقبيلة ... في عهد القذافي برزت القبيلة من جديد و واصلت عملها إلى جانب مؤسسات الدولة وتميزت ادارتها بالطابع القبلي. بعد ثورة فبراير ٢٠١١ تسلحت القبيلة وصارت أقوى, بل بدأت تلعب دور الدولة فصارت تعتقل وتحارب وترتب علاقاتها مع القبائل الأخرى, اخطر تحول للقبيلة في ليبيا هو تحول المدن إلى قبائل حيث صار الانتماء للمدن يأخذ شكل التعصب القبلي ولوحظ التطهير القبلي لبعض المدن.[٣٦]

ويرى المتابعون للشأن الليبي أن القبيلة قويت شوكتها على حساب العمل السياسي منذ الفترة الملكية حينما أنشأ الملك السنوسي مهرجانات الصوت التي تقام لعرض المرشحين السياسيين على أفراد القبيلة من أجل تزكيتهم سياسيا .وهو ذات العمل الذي استفاد منه القذافي في المؤتمرات الشعبية مع قصف العمل الحزبي ووصفه بالخيانة وهو ما أربك مؤسسات الدولة ومنعها من البروز والقيام بدورها. في المقابل فإن أربعين ومائة قبيلة في التراب الليبي بمختلف أحجامها وإثنياتها العرقية حاولت جميعها أن تلعب دورا في ظل غياب مؤسسات الدولة ولكن ثلاثين من

(٣٣) المرجع نفسه، ص ١٤.

(٣٤) ريتشارد تابر، المرجع السابق، ص ١٦.

(٣٥) منذر اسحاق، القبيلة والسياسة في اليمن: مقاربة سوسيولوجية (ورقة قُدمت لـ «مشروع تعزيز معرفة الشباب اليمني بمفاهيم المواطنة والديمقراطية في مدينة تعز: مؤسسة تنمية الشباب، ٢٠١٢/١/٢٢)

(٣٦) المصدر نفسه.

القبائل العربية هي التي تصدّرت المشهد الليبي؛[٣٧] في حين كانت خمسة منها تقود العملية السياسية من وراء حجاب وتفرض الأمر الواقع عن طريق مليشيات مسلحة تسليحا جيدا، وهي قبيلة ورفلّة وقبيلة المقارحة وقبيلة القذاذفة، وقبيلة تاورغاء (وهي من التبو)، وقبيلة ترهونة وقبائل مصراتة (وهي من القبائل العريقة ذات أصل أمازيغي وعرّبت تعريبا كاملا ، اشتهرت في التاريخ بصلابتها وتمرّسها بالقتال، تهابها كل القبائل الليبية شرقا وغربا وقد أثبتت فاعلية كبرى في اسقاط نظام القذافي وتكوين دروع ليبيا كما فزعت لنجدة الثورة كلما دعتها الحاجة إلى ذلك مثل إخراج ثوار الزنتان المعتصمين بالمطار ، ودحر داعش عن مدينة برقة ، وإخراج المليشيات الست المسلحة من العاصمة طرابلس)[٣٨] بينما يذهب البعض الآخر لأكثر من ذلك ويعتبر القبيلة في ليبيا «أصل الهوية في ما بعد الحداثة ، وإن العودة القوية إلى الهويات القبلية في ليبيا كان في إطار العودة إلى الهويات الأصلية بأقوى صيغها حتّى لتبدو أشدّ حدّة مما كانت عليه في عهد القذافي. وهي تكشف عن خروج الكامن إلى المعلن سياسيا وثقافيا وسلوكيا...»[٣٩]

بل صدّام حسين نفسه الذي سبق أن جرّم استخدام الهويات القبلية كأداة لتنشئة مواطنين بعثيين وحداثيين، لم يتوان عن توظيفها في أعقاب طرد العراقيين من الكويت سنة ١٩٩١.[٤٠] وفي المملكة العربية السعودية تلعب القبيلة دور الوسيط بين المجتمع والدولة. وأن المملكة نشأت نتيجة تحالف سياسي–ديني ... هي نتاج تحالف بين الدين والقبيلة.[٤١]

هذه بعض الأمثلة ولكن عموما إن مجمل التحولات التي جرت في نسيج وبنية المجتمع المعاصر لم تنشئ روابط جديدة لها التأثير في سلوك الفاعلين م يؤهلها أن تحل محل القبيلة؛ فهي ما زالت رافعة تنظيمية، وتشكل الخيط الناظم لكل التفاعلات الاجتماعية في كثير من دول العالم الثالث. بل هي «شكلاً تاريخياً من أشكال الحياة الجماعوية التي انتشرت بملامح مختلفة في جميع أنحاء العالم، وكان له دور في تمثل الذات الجماعية، واستخدمه الفاعلون السياسيون آيديولوجيا ... بشكل مزدوج، أي استخدموه أداةً للهيمنة وحشد الأنصار ، وإطاراً ذهنياً–ثقافياً يساعد المجموعة على التماسك وإعادة إنتاج الذات.»[٤٢]

(٣٧) طارق بريدعة، بوابة ليبيا الإخبارية، ٢٠١٣/١٢/٣١. | https://www.afrigatenews.net/opinion

(٣٨) محمد التومي، دور القبيلة في تشكيل الحياة السياسية في ليبيا، مركز الدراسات الاستراتيجية والدبلوماسية موقع منبر ليبيا(Libya tribune ، ٢٠١٩/١/٢١

(٣٩) المصدر نفسه.

(٤٠) المصدر نفسه.

(٤١) ديل إيكلمان، الانتماء القبلي في وقتنا الراهن: التداعيات والتحولات، مجلة عمران، العدد (١٩)، المجلد الخامس، شتاء ٢٠١٧، ص ٥٧).

(٤٢) Horowitz, D., Ethnic Group in Conflict. Berkley: University of California Press, 1985. p. 53

تقدم الحالة السودانية دعما إمبيريقيا لكيفية اشتغال الهوية القبلية. فإذا كان هناك من يميِّز بين القبيلة بوصفها «كيان اجتماعي» و«القبلية» بوصفها عصبوية وتنطوي على ولاء وليس انتماء فقط، فإن القبيلة بصورة عامة – كمؤسسة اجتماعية – ما زالت فاعلة في كثير من مناطق السودان ولها تأثيرها في السلوك السياسي وفي مكونات الهوية (الهويات الصغرى)؛ لذلك ينبغي التعامل معها بوعي وحذر ووضعها في سياقها الاجتماعي/التاريخي بحيث لا يجب أن يتجاوزها التحليل عند التعاطي مع جذور الأزمات ومشكلات الهوية في السودان. ويمكن أن تؤدي القبيلة دوراً إيجابيا في الاستقرار من خلال كونها تقوم على قواعد الضبط الاجتماعي وخاصة أن البديل اجتماعيا غير متاح حالياً – لا سيما مع عدم نضوج التكوين الطبقي أو اكتمال بناء القوى الحديثة ومنظمات المجتمع المدني عدا بصورة محدودة في العاصمة وبعض المدن الكبرى. وأبلغ دليل على التأثير الهوياتي الكبير للقبيلة في السودان هو أنك إذا سألتَ سوداني (في داخل السودان) عن جنسه يأتيك الرد بأن ينسب نفسه لقبيلته (كأن يقول لك أنا شايقي، أو جعلي، كاهلي، نوبي، نوباوي، مسيري، زغاوي، مساليتي ...إلخ.). وهذا أمرُ معروف وشائع في السودان – مع الأسف حتى وسط المتعلمين!

وتظهر القبيلة بوجهها السياسي المستهجن، المتمثل في علاقات الهيمنة والخضوع عندما تتوقف عن نموذجها الاجتماعي المثالي وتسخر ولاء وتضامن أعضائها وتوجهه إلى سلوك عنصري وآيديولوجيا سياسية في مجتمع الدولة فتحدث توترات في بنية الدولة الوطنية التي تتشكل من قبائل متعددة.(٤٣) وتعبِّر عودة الولاءات القبلية والعرقية والجهوية والطائفية والعشائرية في السودان عن انهيار إطار التضامن الوطني الذي يجمع الأفراد على فضاء أعم وأشمل هو وعاء الدولة.

عندما جاءت الحكومات العسكرية حلّت الأحزاب السياسية – التي كانت أغلبها طائفية – باعتبارها كيانات «رجعية» ومتخلفة فارتدَّ الولاء إلى القبيلة وتم إحياء «القبلية» tribalism لعدم وجود أحزاب أو مؤسسات سياسية حديثة أو كيانات هوياتية كبرى يلجأ إليها الفرد في عملية الانتماء في غياب هوية وطنية جامعة تستجيب لعاطفة الانتماء الأوسع للفرد. لذلك ظل السلوك السياسي للفرد السوداني متأثراً بالقبلية في الانتخابات (الشكلية) التي تمت تحت الأنظمة العسكرية/الشمولية السودانية (الجنرال نميري: ١٦ عام والجنرال البشير ٣٠ عام) وهي معظم عمر السودان المستقل (منذ ١٩٥٦). ولم تسلم تلك الديمقراطيات

(٤٣) يوسف مكي، «عندما تصبح القبيلة وسيطاً بين المجتمع والدولة: مع إشارة لحالة المملكة العربية السعودية». في: أزمة الدولة في الوطن العربي: بحوث ومناقشات الندوة الفكرية التي نظمها مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، يوليو ٢٠١١.

القصيرة التي عادت فيها الأحزاب من طغيان نفوذ القبلية على السلوك السياسي للفرد في الانتخابات المختلفة..

من منظور «مجتمع سياسي» السودان أصلاً مجتمع قبلي حيث شكّلت القبيلة حاضنة اجتماعية وسياسية وثقافية واقتصادية. توزعت الولاءات في السودان بين القبائل المختلفة، ثم ظهرت الطائفية. وعندما ظهرت الأحزاب السياسية في السودان تشكلت على أساس طائفي – والطائفة هي وعاء أكبر من القبيلة أو بمثابة كونفدرالية من عدة قبائل يجمعها حزب سياسي واحد. فحزب الأمة (قوامه طائفة أنصار المهدية) جاء معظم أنصاره من قبائل غرب السودان (يضم إثنيات محددة) ومنطقة الجزيرة أبا في النيل الأبيض؛ بينما الحزب الاتحادي الديمقراطي (قوائمة طائفة الختمية) جاء معظم أنصاره من قبائل في شمال السودان وشرقه (كما سبقت الإشارة). لذلك يُقال أن الطائفية أضعفت من الولاءات القبلية/العشائرية الضيقة حيث نقلت الانتماء إلى وعاء أكبر هو الطائفة، مع الأخذ في الاعتبار أنها كلها هويات دون وطنية (صغرى) sub–national.

قبل الاستقلال لم تكن هناك مشاكل سياسية بين القبائل على أساس الهوية بل على أساس قبلي محدود – صراع حول الأرض، المرعى والمياه. وأن معظم هذه المشكلات مرتبط بالتنمية (التعليم والخدمات) مقرونة بانتشار الجهل أو غياب الوعي، بما يشير إلى أن النخبة السياسية الحاكمة هي المسؤولة عن ذلك من ناحيتين: أولاً، من خلال فشل النخبة في تحقيق التنمية الشاملة والعادلة؛ وثانياً، من خلال تسييس النخبة للقبيلة وإثارة النعرات العنصرية والاستثمار سياسياً في العصبوية القبلية.

وتشكل القبيلة نوعاً من وعي الذات ما قبل القومي أو دون الوطني. وقد بدأت تتراجع العصبوية القبلية نسبيا في كثير من مناطق السودان في العقود السابقة لمجيء حكومة الإنقاذ (الاخوانية/العسكرية) وذلك بسبب انديا ح الوعي بسبب انتشار التعليم. غير أن القبلية عادت بصورة أكبر منذ التسعينات من القرن العشرين (وحتى تاريخه) بسبب تسييس الإثنية وقبلنة السياسة على يد حكومة المؤتمر الوطني (الحركة الإسلامية) في صراعها مع الأحزاب الأخرى. وهذا أدى إلى «إحياء الهويات الصغرى» بدرجة كبيرة وشكّل انتكاسة في مسيرة بناء الدولة المتماسكة والمستقرة.

٢. أثر الإثنية:

هنالك اختلاف كبير وجدل بين العلماء حول تعريف و/أو خصائص الهوية الإثنية حيث يحصرها البعض بالسلالة أو وحدة الأصل (descent) الذي تنحدر منه الجماعة الإثنية (العرقية) المصنفة هوياتياً على ذلك الأساس.

يرى أحد علماء السياسة – مثلاً – أن الهويات الإثنية (ethnic identities) هي هويات فرعية «ترتبط بالخصائص السلالية descent–based attri–butes أي الخصائص المتوارثة جينياً مثل لون البشرة، نوع الشَّعر، لون العين، الطول، الملامح الجسمانية (physical features)؛ إضافة إلى خصائص فطرية innate trates.»(٤٤) ويرى هورويتز (Horowityz) أن الهوية الإثنية هوية «مظلة تضم جماعات تميز باللون، اللغة، الدين، وتشمل القبائل والأجناس races والقوميات والطوائف.»(٤٥)

ويرى تيد قور (Gurr) أن الصراعات الإثنية هي «ظاهرة عامة في العالم المعاصر. وقد أحصى حوالي ٢٣٣ نزاعا سياسياً نشطة بين ١٩٤٥ و ١٩٨٩. ولاحظ وجود أربعة أنماط للتظلمات التي تفجِّر الصراعات: مطالب بالحكم الذاتي، الحقوق السياسي – غير الحكم الذاتي، الحقوق الاقتصادية، و الحقوقالاجتماعية والثقافية.»(٤٦)

لاحظ الباحثون أن الصراعات الإثنية الداخلية ظلت في إرتفاع في العقود القليلة الماضية مقارنة بعقود ما قبل التسعينات من القرن العشرين – خاصة مقارنة بالانخفاض الكبير في عدد الحروب التي بين الدول في الفترة ذاتها. وأنه خلال الخمسين عاما الماضية لم تعد الحروب هي بين الدول (interstate) بل هي الصراعات الداخلية – القبلية والدينية والإثنية.(٤٧) كما لوحظ أن ثلثي تلك الصراعات والحروب في الخمسين الماضية كانت إثنية، وأن هذه الحروب الداخلية بلغت أربعة أضعاف الحروب بين الدول.(٤٨) وأن حوالي ٢٠ مليون شخص تُوفّوا في عنف إثني منذ الحرب العالمية الثانية. وبعد انهيار الاتحاد السوفيتي السابق والشيوعية في أوروبا الشرقية تفجرت عداوات إثنية في أذربجان، أرمنيا، شيشنيا، جورجيا ويوغسلافيا السابقة وبعض المناطق الأخرى في أوروبا الوسطى والشرقية. ومنذ نهاية الحرب الباردة ظل انتباه العالم مشدودة إلى الصراعات الإثنية المتزايدة – فهنالك الحروب بين الصرب، الكروات، المسلمين البوسنى، وكوسوفو

(٤٤) المولدي الأحمر، نحو استعادة المشاهدة من دون حجاب القبيلة، عمران، العدد (١٥) ٢٠١٦ ص ص ١١٤، ١١٦)

(٤٥) عبد الرحيم محمد أحمد، الصراعات العرقية والقبلية والجهوية في السودان وكيفية معالجتها، المنتدى (أوراق توثيقية تصدر عن مركز الراصد للدراسات، الخرطوم، العدد السادس والعشرون، السنة السابعة، ديسمبر ٢٠١٢، ص ٥٥.

(٤٦) Horowitz, D, op. cit., p. 52.

(٤٧) Marc Howard Ross and Jay Rothman (editors). Theory and Practice in Ethnic Conflict Man-agement: Theorizing Success and Failure (New York: St. Martin's Press, Inc. 1999, p. 4).

(٤٨) Howard Handelman, The Challenge of Third World Development, 5th edition. New Jersey, Pearson, Printice Hall, 2009, p. 93.

في يوغسلافيا السابقة؛ الحركات الانفصالية في مقاطعة كيوبيك الناطقة بالفرنسية في كندا، أعمال العنف العنصري في لوس انجلوس، إرهابيو الباسك في أسبانيا، والصراع البروتستانتي الكاثوليكي في إيرلندا الشمالية ... كلها أكدت بوضوح أن الاحتكاكات بين الإثنيات والعنف المصاحب لذلك يمكن أيضاً أن ينفجر في الديمقراطيات الغربية وفي الدول الشيوعية السابقة. لك يظل الصراع الإثني هو الأكثر انتشاراً وأشد قسوة في أفريقيا، آسيا، وبقية مناطق العالم الثالث، وذلك – جزئياً – بسبب أن الدول الأقل نمواً تتسم بتنوع عرقي أكبر؛ وجزئياً لأن أنظمتها السياسية تفتقر للمؤسسات والخبرة اللازمتين لحل هذه التوترات سلمياً.(٤٩)

تكتسب مسألة الإثنيات في عالم اليوم أهمية كبرى، فبعد أن ساد إعتقاد في خواتيم القرن العشرين بأن الإنسان في ترقيه في سلم الحداثة سيصل إلى درجة تتلاشى فيها الانتماءات الإثنية والثقافية ليحل محلها الانتماء الطبقي – في المفهوم الماركسي – أو ليحل محلها الإنسان الأخير – حسب تعبير فرانسيس فوكوياما،(٥٠) جاءت الوقائع لتثبت خطأ هذه التنبؤات، فشهد العالم تصاعداً في الاهتمام بهذه الولاءات والانتماءات.

يبدو أنه كلما زاد تعرض المجتمعات لموجات التحديث سابقاً أو العولمة حالياً، زاد حماسها للبحث عن جذورها. ومن أمثلة ذلك ما حدث في تركيا ودول آسيا الوسطى وجمهوريات الاتحاد السوفيتي السابق. وتزداد هذه الظاهرة كلما كانت هناك سلطة مركزية قابضة تهمش الثقافات الوطنية/الفرعية الأخرى أو تقصي الثقافات المحلية فتكبتها ولا تجد طريقاً للتعبير عن نفسها فيكون رد الفعل انفجاراً في شكل حروب أهلية أو ظهور حركات متعصبة.(٥١)

لقد أصبحت الإثنية بتعدد دلالاتها تشكل تهديداً للاستقرار السياسي لكثير من الدول لأنها تهدد بخلق كيانات سياسية جديدة وتؤدي إلى انقسامات أو تحالفات جديدة. وبعض هذه الوحدات الصغرى (الإثنية) التي تقوم على روابط العرق، الدين، والإنتماء القبلي بدأت بتقوية علاقاتها الداخلية مؤكدة وجودها، مؤثرة في سياسيات الحكومات. وفي حالات محددة يكون وجود الحكومات مرتبطاً بالتوجهات السياسية لهذه الوحدات الاجتماعية.(٥٢)

(٤٩) Monica Duffy Toft, The Geography of Ethnic Violence: Indentity, Interests, and the Indivisibility of Territory (Princeton University, NJ: Princeton University Press, 2003)p. 3. In: Howard, Ibid. p. 93.

(٥٠) Howard, op.cit. pp. 93 – 94.

(٥١) فرانسيس فوكوياما، نهاية التاريخ وخاتم البشر، ترجمة حسين أحمد أمين (القاهرة: مركز الأهرام للترجمة والنشر، ١٩٩٣، في: عبده مختار، مسألة الجنوب ومهددات الوحدة في السودان، ص ١٢٧

(٥٢) عبد الرحمن الغالي الجعلي، «التعدد الإثني والديمقراطية في السودان» ورقة قُدمت لمؤتمر (التعدد الإثني والديمقراطية في السودان) تحرير حيدر إبراهيم علي، مركز الدراسات السودانية، الخرطوم، ٢٠٠٢.

هذا التوصيف يقترب كثيراً من الحالة السودانية مثل النوبة في جبال النوبة بولاية جنوب كردفان بالسودان، والأفارقة مقابل العرب في دارفور، والأقليات العرقية في شرق السودان (مثل البجا الذين كان لهم كيان سياسي خاض الانتخابات عدة مرات وحصل على ١٠ مقاعد في البرلمان في انتخابات عام ١٩٦٥).

فمثلاً من الملاحظ في دارفور أن حكومة الحركة الإسلامية لم تتدخل بحياد، وعملت على استقطاب بعض النخب إلى جانبها. هذا الاستقطاب السياسي الحاد تلازم مع استقطاب إثني وتمايزت الهويات العربية مقابل الأفريقية (عرب مقابل أفارقة). ومع ظهور الحركات المسلحة حدثت تقاطعات بين ما هو سياسي وما هو قبلي فكانت النتيجة تصاعد أزمة دارفور وتعقيدها وتدويلها.

يمكن القول أن سيادة الهوية الإثنية يشكل جزءً من أسباب فشل النخبة في المشروع الوطني (بناء الدولة القومية المتماسكة والحكم الرشيد والديمقراطية المستدامة).. ويؤكد الواقع السوداني ذلك لا سيما من خلال ما حدث في إنفصال الجنوب وفي الحرب في إقليم دارفور والتوترات لدى مجموعات إثنية أخرى (النوبة، قبائل ولاية النيل الأزرق، قبائل الشرق وغيرها).

٣. الطائفية:

يشكل نمو الطائفية «إدانة للنخب الحاكمة التي حرمت المجتمع من أي حياة سياسية سليمة ... كما تعطيل الاختيار الحر للمواطن الفرد لا يفسد شرعية السياسة والدولة الحديثتين فحسب، لكنه يقوِّض قدرة الدولة على انتاج إرادة عامة، بقدر ما يعمل على تكوين مراكز قوة أهلية داخل الدولة تحول دون تحقيق غايتها ... وتعطيل العمل على برنامج هدفه توليد روح الأخوّة والتضامنات الوطنية والإنسانية...»[٥٣]

في السودان لا توجد طائفية حادة بالدرجة والعمق الذي يشكل «هويات» بارزة ومستقلة أو واضحة المعالم والحدود (clear-cut) بل تتستر خلف أحزاب سياسية. نعم توجد طائفية في السودان، لكنها طائفية سياسية/حزبية محدودة. بمعنى أن الهوية في السودان لا تقوم على أساس اصطفاف طائفي/مذهبي، بل إثني/عنصري وقبلي – وإلى حد ما جهوي. فمثلاً أكبر حزبين في تاريخ السودان اللذان قادا البلاد إلى الاستقلال هما حزبا الأمة (يقوم على طائفة الأنصار – أنصار المهدي)؛ والاتحادي الديمقراطي (يقوم على طائفة الختمية/ الميرغنية – طريقة صوفية) تقاسما مناطق النفوذ في السودان على أساس إثني وجهوي. فمن ناحية جهوية يتركز الثقل الشعبي لحزب الأمة في غرب السودان (دارفور في الغرب الأقصى، وجزء من كردفان في الغرب الأوسط) إضافة إلى

(٥٣) شفيق الغبران الإثنية المسيسة: الأدبيات والمفاهيم، مجلة العلوم الاجتماعية، السنة ١٦، العدد ٣ (خريف ١٩٨٨)، ص ٤٤.

منطقة النيل الأبيض في وسط السودان (الجزيرة أبا). بينما يتركز الثقل الشعبي للحزب الاتحادي الديمقراطي في شرق السودان والإقليم الشمالي. وهذا الاستقطاب السياسي/الحزبي على أساس جهوي يكون واضحا في فترات الانتخابات (في فترة الحكم المدني/الديمقراطي).

أما إثنياً (عرقياً) فقد شهد إقليم دارفور (خمس ولايات) صراعا واستقطابا حادا في فترة الحكم الديمقراطي بين حزبي الأمة والاتحادي الديمقراطي (حتى قبيل استيلاء الحركة الإسلامية على السلطة في ١٩٨٩) فقد كسب حزب الأمة ولاء القبائل العربية في دارفور بينما احتكر الحزب الآخر (الاتحادي الديمقراطي) ولاء القبائل غير العربية – أي استقطاب إثني/سياسي. وقد أدى ذلك إلى زرع بذور الاستقطاب الإثني الحاد في دارفور حيث كان له أثر سئ في تصعيد أزمة دارفور إلى أزمة دولية في فترة حكومة الحركة الإسلامية العسكرية (الإنقاذ: ١٩٨٩ – ٢٠١٩) عندما تدخلت بصورة غير محايدة في الصراع وجاءت بما يُعرف بـ «الجنجويد»، وقد دفع ذلك الطرف الآخر (القبائل غير العربية/الزُرْقة) إلى الاستقواء بالأجنبي وما نتج عن ذلك من تدويل لمشكلة دارفور.

بيد أن هذه الأحزاب لم تنحصر عضويتها في هذه الطوائف بل شملت عضوية كبيرة جدا من خارج الانتماء الطائفي. فمثلاً حزب الأمة لم تكن عضويته محصورة على طائفة أنصار المهدي بل شملت شرائح أخرى من المجتمع على الرغم أن القيادة كانت – واستمرت – حصراً على بيت المهدي(آل المهدي) بدرجة كبيرة – إلا في استثناءات محدودة لا يمكن القياس عليها. والقول ذاته ينطبق على الحزب الاتحادي الديمقراطي الذي لم تكن عضويته حكرا على طائفة الختمية بل شمل عضوية من كافة شرائح المجتمع ويتميز بأنه الأكثر استقطابا للنخب المثقفة لعضويته مقارنة بحزب الأمة. لذلك يصح القول بأن وصف هذه الأحزاب بأنها «طائفية» إنما بسبب هيمنة طائفة محددة على الزعامة التي أصبحت حكرا على بيوتات محددة (آل المهدي بالنسبة لحزب الأمة؛ وآل الميرغني بالنسبة للحزب الاتحادي الديمقراطي).

قبل الاستقلال كانت القوميات المختلفة في السودان قد توحدت ضد الاستعمار من أجل الاستقلال. فتوحدت خلف الأحزاب من أجل التحرير الوطني. لكن بعد الاستقلال عجزت الأحزاب السياسية – حتى الموصوفة بالثورية – من أن تتحول إلى أحزاب قومية دون الاعتماد على «الأُطر التقليدية واستمرار الماضي والعودة إلى اللغة القديمة برموزها وطقوسها وطوائفها وتناقضاتها. وأصبحت هذه الأحزاب تعبر عن الوزن الخاص بالجماعات العرقية والطوائف الدينية والتوجهات الاقليمية. كما ارتبطت عمليات التحديث والتنمية الاقتصادية بمناطق النفوذ السياسي مما أدى إلى تفعيل النزعات الاقليمية على حساب عوامل التوحيد التي تكيِّف البناء القومي...»[٥٤]. فمثلًا في السودان فشلت الأحزاب الرئيسية

(٥٤) برهان غليون، نظام الطائفية: من الدولة إلى القبيلة، الدوحة.... ط٢، ٢٠١٧، ص ص ١٦ – ١٩.

(الأمة والاتحادي الديمقراطي) في التخلص من النزعة الطائفية والتمسك بالتصور التقليدي لنظرية المقدس على الصعيد الديني والموروث الوطني لتجارب المؤسسين التاريخية.(٥٥)

بما أنها – أي الأحزاب التقليدية – كانت تتمتع برصيد جماهيري كبير وتكتسح الانتخابات فقد شوّهت العملية السياسية (شكل وطبيعة المشاركة والممارسة السياسية)، كما أثّرت سلباً على السلوك السياسي للفرد والمؤسسات على حد سواء. فالسلوك الانتخابي للفرد متأثر ومحكوم بانتمائه لزعيم الطائفة الدينية وليس عن وعي وإدراك بالموقف، وبالتالي تراكمت ثقافة سياسية سالبة في السودان أفرزت ديمقراطية غير حقيقية أو مشوّهة؛ بينما اتجهت الأحزاب لوضع فشلها على شماعة تدخُّل الجيش في السياسة واستيلائه على السلطة وأنها لم تجد الفرصة الكافية. وأصبحت لدينا ظاهرة يمكن وصفها بأنها «تسييس القبيلة في المناطق الريفية وقبلنة (tribalization) السياسة في المناطق الحضرية.»(٥٦) أسهمت هذه الأحزاب في أكبر مشكلتين تواجهان الدولة العالمثالثية – المشروعية والهوية، وذلك من خلال تغييبها للديمقراطية الحقيقية في داخلها من ناحية، وتكريس الطائفية والقبلية والجهوية من ناحية أخرى، فأثرت سلبا – ضمن عوامل أخرى – في عملية بناء الهوية الوطنية.

الملاحظة العامة المهمة هنا هي أن هذه الأحزاب الطائفية/القبلية/الجهوية قد تعرضت لإنشقاقات وفقدت جزء من عضويتها بالإنسلاخ والانضمام لأحزاب أخرى وخاصة حزب الحركة الإسلامية الحاكم في السودان (المؤتمر الوطني) الذي نجح في تقديم إغراءات من خلال المناصب والامتيازات. هذا إضافة إلى تذمر الجيل الجديد من شباب هذه الأحزاب لعدم توافر المؤسسية والديمقراطية في هذه الأحزاب وهيمنة بيوتات طائفية وشخصيات تقليدية على قيادة هذه الأحزاب منذ الاستقلال مما أدى إلى ضعفها وتراجع شعبيتها حيث استطاع الحزب الحاكم (الإنقاذ/المؤتمر الوطني/الحركة الإسلامية) اختراق مناطق كانت في السابق دوائر حكرا على هذه الأحزاب من خلال تقديم الخدمات ومشروعات التنمية وغيرها من

(٥٥) قيصر موسى الزين وآخرون، ملف المنتدى «الصراعات العرقية والقبلية والجهوية في السودان وكيفية معالجتها»، الخرطوم: مركز الراصد للدراسات السياسية والاستراتيجية، العدد السادس والعشرون، السنة السابعة، ٢٠١٢، ص ٧٣

(٥٦) المصدر نفسه، ص ٧٣ . في بعض المناطق عندما يزور أحد أئمة الأنصار (زعماء حزب الأمة) المنطقة يتم استقباله بحشود ضخمة جدا تحاول أن «تتبرّك» به (أي تأخذ منه البَـرَكَة باعتباره من «أولياء الله الصالحين». وهذا سلوك معروف يقترب من التقديس Personality cult فيحاول كل فرد من جمهور الأنصار أن يصل إلى يد الإمام ليقبلها، فإن لم يستطع فإنهم يحاولون التبرك بغبار عربة «السيد» الإمام أو أخذ ذرّات الرمل من آثار إطار عربته على الأرض؛ وهو لا يرفض ذلك مما يعني قبوله للأمر. بل يوهم هؤلاء السادة الناس البسطاء من خلال استغلالهم في مشاريعهم الزراعية لكي يفلحوا له أرضه بالمجان لأن كل متر يزرعه الأنصاري هنا يقابلها مترٌ له في الجنَّة!.

وسائل الاستقطاب والتجنيد. وهذا يشير إلى تراجع هذه الأحزاب وضعفها وضعف تأثيرها في العملية السياسية بما يصح معه التنبؤ بانحسارها تدريجيا. وهذا يعني ضعف دورها كفاعل في تشكيل الهويات الجماعاتية(communal identities) في السودان.

إذن في السودان لا توجد طائفية تشكلت حولها هويات كبيرة وإنما تشكلت الهويات بديناميكيات وعوامل أخرى مثل القبلية والإثنية والجهوية – كما تم تفصيل ذلك سابقاً. ما يؤكد ذلك ملاحظة أن مفردة «طائفية» لا تسجل حضوراً في الخطاب السياسي والإعلامي الرسمي في السودان عند التعاطي مع الأزمات والحروب وعدم الاستقرار أو تمزيق النسيج الاجتماعي أو تهديد الوحدة الوطنية، أو ما شابه ذلك.

٤. الطرق الصوفية:

ينظر الكثيرون للصوفية بوصفها حالة مجتمعية/عقائدية وسوسيو ثقافية. وظلت الصوفية لها تأثيرها الممتد في كثير مناطق الشرق الأوسط وأفريقيا كمؤسسات دينية واجتماعية. ومن خلال الطريقة التي تؤثر وتنتشر بها تؤكد أن «الدين هو مؤطر للبنى الثقافية والاجتماعية ولمجمل الذهنيات.»(٥٧)

في السودان الإسلام صوفي شعبي معتدل انتشر عن طريق الصوفية. وفدت الطرق الصوفية للسودان من عدة مصادر هي الحجاز ومصر وشمال وغرب أفريقيا. الاتجاه الفردي في التصوف سبق دخول الطرق كمؤسسات منظمة ذات تعاليم وأذكار وأوراد جماعية ومشتركة. وقد جمع الجيل الأول من المتصوفة في السودان بين العلم والتصوف، أو بين الشريعة والحقيقة، أو علوم الظاهر والباطن. وقد ساد ذلك الاتجاه الفردي في التصوف قبل مجئ الشيخ تاج الدين البهاري، أول داعية للطريقة القادرية، والتي تشير معظم المصادر إلى أنها أقدم الطرق دخولاً للسودان. وقد شهد السودان نوعين من الطرق: أولها الطرق القديمة أو التقليدية ذات المشيخات والقيادات المتعددة والإدارة اللامركزية، ومن أمثلتها الطريقة القادرية والشاذلية. أما النوع الثاني فهو عبارة عن الطرق ذات القيادة المركزية والمتأثرة بالحركات التجديدية والإصلاحية التي شهدها العالم الإسلامي في الفترة من أواخر القرن السابع عشر وحتى أواخر القرن التاسع عشر. ومن أمثلة هذا النوع: الطريقة السمانية والطريقة التجانية والطرق المتأثرة بمدرسة السيد

(٥٧) Abdu Mukhtar Musa, "Electoral Systems and Political Behaviour: Challenges Facing Democratization in the Sudan", a paper presented at the Sudan's Studies Association Conference, no. 29, on: "Sudan's Elections and the Referendum: Choices, Last Chances, A Time for Change?," May 28 – 30, 2010, Purdue University, West Lafayette, Indiana, USA.

أحمد بن إدريس وهي الختمية والإسماعيلية والرشيدية والأحمدية الإدريسية.(٥٨)

جاءت الأحزاب «الطائفية» في السودان من رحم الصوفية. ويمكن وصف هذه الطرق الصوفية بأنها نوعاً من الطائفية – طوائف دينية. لكنها لا تشكل مرتكزا للهوية لسببين: أولاً لأنها غير ناشطة سياسياً فهي ارتبطت بالتدين والتعبد كانت تشكل كيانا دينيا أكثر منه طائفة تعبر عن هوية مميزة؛ وثانياً أنها جاءت كتعبير لانتشار الإسلام الشعبي المتسامح ولم تطرح نفسها كآيدولوجيا أو أُطر سياسية. فهي مؤسسات دينية/اجتماعية تقليدية. وقد استفاد محمد أحمد المهدي من هذه المؤسسات الدينية التقليدية لنشر دعوته في البداية، ولكنه سرعان ما تحول من صوفي إلى سني ثوري بحكم مقتضيات الواقع، حيث كان عليه قيادة ثورة ضد الاستعمار البريطاني في السودان. فجاءت دعوته متسامية على الطائفية والقبلية والعنصرية وصهرت دعوته الجميع في بوتقة الهوية الوطنية الجامعة فقاد بها ثورة نجحت في تحرير السودان من الحكم التركي. وعندما جاء الاستعمار البريطاني استمرت تلك الطرق الصوفية تعمل بعيدا عن تفاعلات السياسة بالرغم من تعرضها لمحاولات الاستقطاب المستمرة لتتفاعل سياسيا مع الواقع.

وعندما جاء الحكم البريطاني اتبعت الإدارة البريطانية في السودان تجاه الطرق الصوفية والمتصوفة سياسة يشوبها التشكك وعدم الثقة. وتعرّض بعض زعماء هذه الطرق للاستجواب والسجن. في الواقع اعترفت بريطانيا بأهمية الطرق الصوفية وأتباعها الكثيرين وانتشار تنظيماتها الهرمية المتدرجة وقدرتها على تنظيم أعضائها على العمل في منظمات قبلية. وحاولت الإدارة البريطانية القيام بعملية تقسيم عمل بين العلماء والصوفيين أو بين الحضر والريف، أو المتعلمين والأميين. ووجد الحكام الجدد سنداً قوياً في كثير من الأحيان. ففي ١٩٠١ كوّن الحاكم العام (ونجت) لجنة العلماء برئاسة الشيخ محمد البدوي. وكان هدف اللجنة دعم الإسلام السني في مواجهة الطرق الصوفية من خلال تدريس العلم الشريف في جامع امدرمان، وأن تقوم بدور الاستشارة للحاكم العام والحكومة البريطانية في الشؤون الدينية. وفي عام ١٩٠٢ صدرت لائحة المحاكم الشرعية التي دمجت هذه الفئة في سلك الخدمة المدنية، وجعلت العلماء موظفي حكومة. وأصبح تعيين أئمة المساجد من مهام الحكومة...(٥٩) غير أن بريطانيا غيرت سياستها تجاه الطرق الصوفية بقيام الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤ خوفا من أن تضييقها على المتصوفة قد يدفعهم إلى الوقوق مع تركيا باعتبار أن الحرب دينية بين المسلمين وغير المسلمين. تصرّف هؤلاء الزعماء الدينيون بحصافة حيث لم يشتغلوا بالسياسة

(٥٨) رشيد جرموني، عرض كتاب التصوف والسياسة الدينية بالمغرب،(محمد جحاح، محرر)، الدار البيضاء: إفريقيا للنشر، ٢٠١٦). في: مجلة عمران، العدد (١٩)، شتاء ٢٠١٧، ص ٢٠٠.

(٥٩) عبده مختار موسى، «الحركات الإسلامية في السودان»، في موسوعة: الحركات الإسلامية في الوطن العربي، المجلد الثاني، إشراف عبد الغني عماد، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، يناير ٢٠١٣، ص ١٦٧٣.

مباشرة، بل اكتفوا بتوجيه الأمور عبر المحبين والمريدين والأتباع. لكن انتهجت بريطانيا سياسة الفتنة بينهم (فرّق تسُد). غير أن الزعماء انقلبوا على بريطانيا لاحقا خاصة بعد أن تكونت الأحزاب السياسية، وكان التغيُّر الأكبر في موقف الختمية (حزب الاتحادي الديمقراطي) حيث أداروا ظهرهم لبريطانيا وتقاربوا مع مصر. كما أن عبد الرحمن المهدي (حزب الأمة) الذي كان موالياً لبريطانيا رفع شعار (السودان للسودانيين) حيث انتهى الأمر باستقلال السودان.

إذن تلك الظروف الموضوعية والتطورات التاريخية حالت دون تبلور طوائف دينية تسمح بتبلور «هوية طائفية» في السودان. كما أن أقوى دليل على أن الطائفية لم تشكل منصة للهوية (مثل القبلية مثلاً) هو أن الخطاب العام السائد في التعامل الاجتماعي بين الناس ينصرف إلى التعارف على أساس القبيلة، حيث عادة يسأل الناس بعضهم بعضا: «قبيلتك شنو؟» (بمعنى: إلى أي قبيلة تنتمي أنت؟)؛ وليس السؤال: أنت حزب أمة/أنصاري أو أنت اتحادي/ختمي؟ حيث لا تتم هذه الصيغة في السؤال إلا عندما يكون هنالك نقاشا سياسيا يستدعي التصنيف الحزبي، أو تحديد المواقف في التصويت في موسم الانتخابات، هذا مع الأخذ في الاعتبار أن هذه الأحزاب قد انشقت إلى عدة أحزاب صغيرة وضعفت وظهرت أحزاب سياسية جديدة ولم تعد تشكل أي قاعدة لبلورة الهوية الطائفية – على محدوديتها وتراجعها الكبير.

سادساً: منصّات متعددة للهوية:

تأسيسا على ما سبق يمكن الحديث عن «منصات» للهوية في السودان – أي قاعدة لمرتكزات الهوية – تشمل القبلية والإثنية والعنصرية الجهوية. أما الطائفية في السودان فهي لا تعدو أن تكون انتماء فرعي ضعيف نسبياً تطغى عليه الهويات الصغرى الأخرى المذكورة آنفاً، وينطبق ذلك أيضا على الصوفية. تعدد «منصّات» الهوية في السودان يشكل أكبر عائق في تشكيل الهوية الوطنية العمومية وفي بناء الدولة المتماسكة المستقرة.

كما سبقت الإشارة فإن تأثير الهويات الصغرى في السودان (مثل الإثنية والجهوية والقبلية) واضح جداً. أما الصوفية والطائفية فيمكن وصفهما بأنهما 'هويات فرعية' (sub-national) من حيث أنه ليس لهما تأثير قوي في التصنيف أو التمايز/التمييز بين الناس ولا تشكل موضع صراع أو تنافس حاد وإنما – الطرق الصوفية مثلاً – بينها احترام متبادل و هم «أحباب في الله» ويتبادلون الزيارا في مواكب دينية عند مناسباتهم الصوفية (مثل الحوليات). وليس للصوفية نشاط سياسي أو آيديولوجي يجعل منها منصة للهوية تؤثر على انتماء الفرد للهويات الأخرى. فالفرد الذي يتبع طريقة صوفية معينة يتأثر بهويته القبلية

والجهوية أكبر عندما يكون هنالك حديث عن التصنيف أو موقف سياسي أو انتخابي. بل يمكن النظر لهذه الهويات الفرعية (مثل الصوفية) بأنها تشكل رافداً للتنوع المذهبي المتسامح ويغذي التعدد الهوياتي المتناغم في سياق الهوية الوطنية الكبرى عكس الهويات الصغرى كالقبلية والجهوية والإثنية.

كذلك الطائفية في السودان ليست حادة لتشكل منصة هوياتية تكون خصما على الهوية الوطنية أو تؤثر في الاندماج الاجتماعي أو التكامل الوطني (ففي الأسرة الواحدة قد تجد من ينتمون إلى أحزاب طائفية مختلفة – مع الوضع في الاعتبار تأثير انتماء الوالد في هذا السياق). فالطائفية في السودان – إن جاز التعبير – تقولبت channeled عبر أحزاب طائفية بينها تنافس سلمي (لا صراعاً) في الانتخابات، ولم تشكل يوما قاعدة للتصنيف الحاد أو فضاءً للصراع الهوياتي أو تشكل عقبة في بناء الهوية الوطنية. فهذه الهويات الصغرى – بهذا التوصيف – يسهل استيعابها في الهوية الوطنية الجامعة. فهي هويات يتم استخدامها في سياقات محدودة أو تنشيطها في مناسبات معينة ولا تشكل خصما على (أو عائقا في) عملية بناء الهوية الوطنية الشاملة.

أما الهويات الصغرى – مثل القبلية والجهوية والإنية – فتأثيرها واضح وتشكل عائقا في بناء الدولة الأمة في السودان. فالقبلية مثلاً أصبحت ضاربة الجذور في العقل السوداني حتى صارت جزءً من السلوك السياسي والبيروقراطي الرسمي –in stitutionalized يُعبر عنها في بند في الاستمارة الرسمية المعروفة بـ «الأورنيك» حيث على المواطن أن يكتب اسم قبيلته في كل المعاملات الرسمية عند التقديم لخدمة أو وظيفة أو في المستشفيات العامة ودواوين الحكومة المختلفة بما في ذلك الشرطة (في البلاغات والجوازات والبطاقة والجنسية) وغيرها. لكن الحكومة الانتقالية لثورة ٢٠١٩ ألغت هذا البند. وهذا يعني أن القبيلة وليس المواطنة هي التي يتم على أساسها تصنيف المواطنين والتعامل معهم تبعا لذلك.

هذا على مستوى الفرد، وتمتد إلى مستوى الجماعات. فتلك القبائل التي يتم التمييز ضدها هم سكان أقاليم محددة وبالتالي يصبح التمييز جهوي وضد مجموعات إثنية معينة، وبالتالي يكون التمييز على أساس عنصرية إثنية. وهذا يدفع بتبلور الهويات الإثنية – نتاج التعامل والسلوك السياسي للنخبة السياسية الحاكمة والتي تنتمي إلى أعراق (إثنيات) وقبائل محددة تم تصنيفها جغرافيا بـ «الوسط النيلي» مقابل الأطراف الأخرى (peripheries) – في الغرب والجنوب والشرق. تبعا لذلك أصبح التصنيف على أساس مزدوج: جهوي/عنصري. وأصبحت تكل الأقاليم تُعرف بأقاليم الهامش – أي التي صارت ضحية للتهميش (marginalized)؛ وأصبحت الأكثر تخلفاً في السودان. لذلك تبلورت تراتبية إثنية/قبلية/عنصرية–جهوية إرتبطت بها دونية اجتماعية لتلك الأقاليم. وأصبح سكان تلك الأقاليم

كأنهم مواطنون من الدرجة الثانية – أو أقل. لذلك ظهرت مصطلحات من شاكلة «»الاستعلاء العرقي» و «الاستعلاء الثقافي». موازٍ لذلك تمت سيطرة «أولاد البحر» (أي الوسط النيلي والشمالي) على السلطة والثروة في السودان. وتجلى ذلك التهميش في إقصاء سياسي، واستبعاد وظيفي وظلم اقتصادي تولّد عنه غُبن اجتماعي/طبقي. فكان رد الفعل حركات الهامش والتمرد والحروب الأهلية. وهي بمثابة ردة فعل أو تعبير عنيف عن رفض الظلم والعنصرية والحرمان من المشاركة في ثروة هي ملك للجميع وليس حصرا لفئة محدودة أو إثنيات معينة، واقتسام سُلطة هي حق لهم مثلما لغيرهم من الأقاليم والإثنيات المكوِّنة للمجتمع السوداني.

تجلى كل ذلك في خطاب تصنيفي واضح يعكس هذه التمايزات بين الهويات وتمثل في ثنائيات مثل:

«أولاد البحر» – مقابل «أولاد الغرب».

«الوسط النيلي» – مقابل «أقاليم الهامش».

«العرب (الحُمرة)» – مقابل «الأفارقة (الُّزرْقة)».

كان نتاج ذلك تكريس للعصبيات وزيادة في العنصريات على هذا الأساس الإثني/القبلي/الجهوي فشكلت منصات لهويات صغرى رسمت الخارطة السياسية والتنموية والاجتماعية والاقتصادية للسودان وفجّرت «صراع هويات» كان أكبر تجلياته هو أطول حرب أهلية في أفريقيا – بين الجنوب والشمال، انتهت باستقلال الجنوب. وبعد انفصال الجنوب انتقل الصراع أيضا على أساس هوياتي بين أقاليم الهامش الأخرى والوسط النيلي.

ليس التنوع الثقافي أو التعدد الإثني هو السبب في إضعاف الدولة الوطنية في السودان، إنما غياب الطابع الوطني والقومي الحقيقي للدولة بسبب السياسات الخاطئة للطبقة السياسية الحاكمة التي أشعلت التمييز العنصري على أساس إثني وقبلي وجهوي. وتم تسييس القبيلة (تدخلت حكومة البشير الإسلامية/العسكرية في تعيين زعماء الإدارة الأهلية من الموالين لحزبها) وتم أثننة السياسة على نطاق واسع حيث انحازت الحكومة للعنصر العربي في دارفور ضد غير العربي. ومن المؤسف أن حكومة البشير نقلت سياسات الاستبعاد العنصري إلى الأجهزة النظامية – خاصة معظم الضباط وكل القيادات العليا تقريباً. وحوّلت الدولة لخدمة المصالح الخاصة وتعظيمها. فغياب «الدولة» – بمعنى السلطة المركزية المحايدة – أدى لإنقسامها وغياب الروح الوطنية – الاحساس بـ «المواطنة» لدى فئات كثيرة من المواطنين. ثم أصبح التمييز مزدوجاً – على أساس عنصري/جهوي (الانتماء

لإثنيات وأقاليم محددة)من ناحية؛ و على أساس سياسي (الانتماء للحزب الحاكم (المؤتمر الوطني- الذراع السياسي للحركة الإسلامية) من ناحية أخرى.

أدت تلك التراكمات إلى بلورت هويات على هذا الأساس (دون الوطني) وأصبحت الدولة في السودان مرتهنة للعصبيات المختلفة وفجّرت صراع الهويات. وهذا مردود طبيعي لتلك الكيمياء. فعندما تجد قبيلة أو إثنية ما نفسها أنها ضحية للتمييز ضدها – من الوسط الحاكم/السلطة المركزية – على أساس عنصري فمن الطبيعي أن يؤدي ذلك إلى إشعال الشعور الهوياتي، فتتحسس كيانها الأصغر وتضامنها الطبيعي لتحتمي به في مواجهة هذا التمييز – الظلم والتهميش والإقصاء والحرمان والاضطهاد والاستعلاء... وعندما تتمادي النخبة السياسية (النيلية) الحاكمة في التمييز ضدها على ذلك الأساس تنمو الهويات الصغرى أكثر وأكثر، ويزداد المواطن «بُعدا» عن الاحساس بالانتماء للوطن.

فشلت النخبة السياسية في «الارتقاء فوق المصالح الجزئية والعصبيات الخاصة]مثل النعرات القبلية[حتى يصبح في مستوى المسؤولية الوطنية العمومية. وفشلها في ذلك يعكس عجزها عن تمثُّل قيم السياسة الحديثة ومعاييرها، أكثر مما يعكس جهل الشعب وأمّيته أو تعصّبه»[٦٠] لهذه الجهة – القبيلة أو الإثنية – أو تلك. فهذه التشوّهات في جسد الهوية الوطنية وإزكاء العصبويات واستيلاد الهويات الصغرى والفرعية هي مسؤولية النُّخَب الحاكمة في السودان. «فليس المطلوب أن يتحرر المجتمع المدني من عصبياته أو تضامناته الطبيعية المتعددة، الدينية أو المذهبية، أو الإثنية التي تعكس واقع الحال ... إنما أن تتحرر النخبة السياسية من تماهياتها الجزئية لتتمكن من تجسيد مثال الوطنية، وأن تحرر معها الدولة ومؤسساتها من احتمال ارتهانا للعصبيات الخاصة، حتى تتحول بفضل سياساتها الوطنية إلى دولة أمة، أي دولة مواطنيها.»[٦١] فهي مسؤولة عن تنمية الولاءات الوطنية والانتماءات القومية وتعزيز روح الأمة، وأن تدفع – بخطابها وسلوكها وسياساتها – الإرادة العامة نحو ذلك الهدف.

بصورة عامة، ما زالت الهويات الصغرى والفرعية تمزق جسد الهوية السودانية الشاملة. فبالإضافة إلى القبلية والعنصرية/الإثنية فإن للجهوية حضور قوي في التوصيف الهوياتي في السودان – أو التمييز على أساس الجهة. فقد ساد خطاب عنصري على أساس جهوي يتجلى في كلمات مثل (جنوبي) بكل ما تحمله المفردة من صورة ذهنية/نمطية تشكلت لدى الرأي العام وأصبحت لها

(٦٠) حيدر إبراهيم علي، مقال عن الشريعة في عهد حكومة الانقاذ، صحيفة «الأخبار» السودانية، الخرطوم: ٢٧ مارس ٢٠١١

(٦١) برهان غليون، المسألة الطائفية ومشكلة الأقليات (الدوحة: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات؛ وبيروت: الدار العربية للعلوم ناشرون، ط٣، ٢٠١٢، ص ١٥.

محمولها النفسي ومدلولها الثقافي واسقاطها السياسي السلبي. تراكمات تلك الصورة الذهنية وما استتبعها من مواقف (نظرة استعلائية) وسلوك 'ممارسات إقصائية'، وسياسات 'تهميشية'، كان نتاجها الحرب الأهلية المستمرة ثم الانفصال. إذن «الجهوية» هي منصة هوياتية (أي قاعدة توصيف وتصنيف هوياتي) أقوى من الطائفية مثلاً. وتحركت منصات الهوية الجهوية جغرافيا إلى «غرباوي» بدلاً عن جنوبي – وما استتبع ذلك من إقصاء وتهميش واضطهاد وظلم ... أدى إلى أزمة وحرب دارفور – مع الأخذ في الاعتبار أن الجهة (الغرب – مقابل الوسط النيلي) يشمل «إثنيات» محددة فتتقاطع هنا الجهوية مع الإثنية – أي يتم التهميش والإقصاء – على أساس جهوي/إثني. وإذا علمنا أن هذه الأقاليم (المتخلفة) غنية جدا بالموارد – بما يفوق الأقاليم الأخرى – لتأكد لنا أن غياب التنمية هو نتاج مباشر لهذا التمييز الهوياتي.

الخاتمـــة:

إذن أهم مرتكز يجب التركيز عليه لبناء دولة متماسكة هو مسألة بناء الهوية الوطنية. بمعنى معالجة أزمة الهوية من خلال معالجة مسألة الهويات الصغرى مثل الإثنية (العرقية)، والعصبوية القبلية والعنصرية الجهوية التي تشكلت في السودان من خلال تراكمات مسؤول عنها السلوك السياسي للنخبة الحاكمة. فالولايات المتحدة الأمريكية هي أكثر تنوعاً من السودان ولكن يرجع استقرارها إلى أن النخبة الحاكمة والمؤسِّسة للدولة الأمريكية تعاهدت منذ البداية على تأسيس نظام ديمقراطي يقوم على حكم القانون والعدالة والمساواة. لكن الأهم من ذلك أنها التزمت بذلك التعهد وعملت على تنفيذه في الواقع وأصبحت عملية الانتماء إلى أمريكا – أو «الأمريكانية» Americanism هو الذي يحكم السلوك الاجتماعي والسياسي للمواطن الأمريكي؛ لذلك نجحت نظرية «بوتقة الانصهار» بهذه الإرادة الوطنية التي تفتقر إليها النخبة السودانية.

يمكن القول أن التعصُّب للقبيلة أو العنصرية هي إحدى معيقات تشكيل الهوية الوطنية الجامعة في السودان. والكارثة أن هذا التعصب موجود حتى وسط المتعلمين. لكن القبيلة في حد ذاتها ليست مشكلة أو التعبير عن الانتماء لها عيباً. فالقبيلة مؤسسة اجتماعية تقليدية لها دور إيجابي في المجتمع، فهي حاضنة للقيم وحامية للتراث وحافظة للتماسك الاجتماعي. لكن المشكلة عندما تتحول إلى نزعة أي «قبلية» (tribalism) وتتدخل في السياسة أو يتم تسييسها، وتؤثر في السلوك السياسي للفرد وللجماعة وللقادة. وقد أصبح مطلوب من المواطن كتابة قبيلته في الأوراق الرسمية أو في استمارة التقديم لعمل. لماذا؟ هذا يعني أن القبيلة أخذت طابع رسمي مؤسسي (institutionalized) . كان ذلك سائداً حتى نهاية حكم المشير البشير/الحركة الإسلامية في إبريل ٢٠١٩ (لكن صدر قرار بإلغاء ذلك من الحكومة الانتقالية، كما سبقت الإشارة).

لذلك فإن السودان سوف يجد صعوبة في أن ينعم بالاستقرار طالما هذه هي الثقافة السائدة فيه. وما زال الأفق فيه مسدوداً بهذه العنصريات والعصبويات. وطالما العقلية الحاكمة والنخب المثقفة ما زالت تتعامل مع المواطن من منظور القبيلة والإثنية والجهوية؛ فتغيب المعايير الموضوعية وتنتفي العدالة ويزداد الإقصاء والظلم وتتفجر الأزمات والصراعات والحروب، وينعدم الاستقرار وتتعطّل التنمية.

مطلوب التوافق على مشروع وطني قوامه استرداد الشرعية ومشاركة حقيقية استيعابية، وتنمية عادلة شاملة وتحقيق دولة المواطنة والقانون كلها تصب في تدعيم عملية بناء الهوية الوطنية الجامعة. وهذا يعني أن أزمة الشرعية وغياب

الديمقراطية ومسألة المواطنة تشكل أهم أسباب تمزيق النسيج الوطني أو تعمل في اتجاه معاكس للاندماج الوطني وبناء الهوية الوطنية.

من ناحية أخرى، على النخب السودانية أن تتفق على أن السودان دولة إسلامية/أفريقية/عربية. «إسلامية» أولاً: لأن أكثر من ٩٨٪ من السكان يدينون بالإسلام؛ ثم «أفريقية»: بالمدلول الثقافي/الحضاري كمكوّن أساسي لمرتكزات الهوية السودانوية Sudanism وليس بالمعنى الجغرافي؛ ثم «عربي» اللسان. فالسودان في المتوسط العام: هو أفريقي الملامح، عربي اللسان، إسلامي المعتقد.